المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تعظيم الله تعالى
في هدايات القرآن الكريم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

تعظيم الله في القرآن الكريم

من خلال تدبر سننه في الآفاق والأنفس

اسم الباحث

أ.د/ إبراهيم رضا

أ. د. إبراهيم رضا

تعظيم الله

في القرآن الكريم من خلال تدبر سننه في الآفاق والأنفس

خلاص العرض

أنزل الله تعالى القرآن الكريم نورًا وهدًى وتبيانًا لكلِّ شيء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ عَذَابًا [النحل: ٨٩]. وقد وصف -عزَّ وجلَّ- هذا الكتاب الكريم بعِدَّة أوصاف، ومنها أنَّه: بصائر وهدى ورحمة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[الأعراف: ٢٠٣].

فهذا الكتاب كما وصفه مُنزله يتضمن بصائر وهدايات ورحمة أنزلها الله ليدلَّ النَّاس بها عليه سبحانه، ويقودهم إلى معرفته من خلالها؛ ولعلَّ من أبرز هذه البصائر والهدايات التي أوردها الحقُّ سبحانه: النَّظر في آياته، وتدبُّر سننه -تعالى- التي أخضع لها سائر مخلوقاته، وتنتظم بموجبها سائر الكائنات في هذا الوجود الكوني الفسيح. فهذا النَّظر والتَّدبُّر سبيلٌ قويٌ لمعرفة عظمة الخالق، وإدراك جانب من جوانب فائق قدرته الباهرة.

وينطلق هذا العرض لتناول هذا الموضوع المهم من مقدمتين عليهما تتأسس مادته العلمية، وهما:

المقدمة الأولى: بيان معنى السُّنن الإلهية الواردة في هدايات القرآن الكريم وكيف أن التفكر والتدبر فيها يُعَد من أقوى السُّبل لمعرفة الله -سبحانه- ومحبته وتعظيمه.

المقدمة الثانية: بيان لماذا تُعد آيات الله في الآفاق والأنفس في هدايات القرآن الكريم كلها تجليات لعظمته -سبحانه- في الخلق والتدبير والتقدير.

أهداف هذا العرض:

أولا: بيان أهمية التفكر ومكانة النظر والتدبر في سننه تعالى، وعلاقة ذلك بتعظيم الله سبحانه وتعالى في هدايات القرآن الكريم.

ثانيا: بيان أثر النظر والتفكر في السنن الإلهية في ترسيخ الإيمان بعظمته سبحانه وتعالى في ربوبيته وفي أسمائه وصفاته وتحقيق العبودية الخالصة له.

ثالثا: بيان أن تعظيمه سبحانه يقتضي الإيمان المطلق بأن مشيئته جل ثناؤه محيطة بكل شيء في هذا الوجود، وأن عظمته سبحانه تحكم السنن ولا تحكمها أو تحدها السنن، وأنَّه

تعالى جلَّ ثناؤه (يخرق، وينقض) ويبدل بعظمته وتقديره جريان هذه السُّنن متَّى شاء ذلك سبحانه، فيعطل النَّار عن الإحراق، ويُوقف السِّكين عن الذبح، ويُعطِّل أمواج البحر عن الامتداد والإغراق، ويُحوِّل العصى إلى ثعبان، والأعمى إلى بصير، وغير ذلك من المعجزات التي تؤكِّد كلّها عظمة سننه -سبحانه- في نُصرة أنبيائه ورسله وفي خذلان أعدائهم ومن اتبعهم متى يشاء ذلك سبحانه وتعالى.

وإجمالًا؛ فإنَّ غرض هذا العرض بالأساس هو محاولة تتبع أهمية الدَّعوة إلى التَّفكُّر والنَّظر في سننه -تعالى- في الآفاق والأنفس الواردة في هدايات كتابه المسطور المقروء، والمُشاهدة في كتابه المنظور: (الكون وما فيه) وبيان علاقة معرفته هذه بتوحيده ومحبَّته وتعظيمه سبحانه وحده.

تمهيد

وصف الله سبحانه نفسه بالعظيم في أكثر من سورة و آية [1]، ودعا إلى تعظيمه في أكثر من موضع، حيثُ قال سبحانه: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٨﴾[الواقعة: ٧٤، ٩٦، والحاقة: ٥٢]، فهو سبحانه وتعالى العظيم وحده، المتفرد بعظمة أسمائه، وعظمة صفاته، وعظمة أفعاله، وعظمة وحيه وشرعه وكتابه. عظيمٌ في عِزَّته وعدله وحمده، فهو العظيم المطلق فلا أحد يساويه ولا عظيم يُدانيه، فشأنُ اللهِ أعظمُ من كلِّ شيءٍ، وعظمةُ الله -عزَّ وجلَّ- فوقَ كلِّ تصدرٍ وتقديرٍ.

قال أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى الْعَظِيمُ: لَا يَقُومُ لَهَا خَلْقٌ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَلْقِ إِنَّمَا يُعَظَّمُ لِمَعْنًى دُونَ مَعْنًى، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يُعَظَّمُ فِي الأَحْوَالِ كُلِّهَا، فَيَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ حَقَّ عَظَمَةِ اللهِ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يَكْرَهُهَا اللهُ، وَلا يَرْتَكِبُ مَعْصِيَةً لَا يَرْضَاهَا اللهُ، إِذْ هُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ[2].

وهو -جلَّ ثناؤه- لا تصدر أفعاله إلَّا عن قدرة وعظمة وحكمة، وكلّ ما يصدر عنه سبحانه من آيات بيِّنات، ودلائل واضحات، في كتابه المسطور أو كتابه المنظور، إنَّما هي بصائر وهدايات، تدلّ على سرّ عظمته وجميل صنعته سبحانه، ولا شيءَ في هذا الوجود خُلق عبثًا، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ١٦﴾[الأنبياء].

وبهذا يتأكّد أنّ هذا القرآن كتاب كريم؛ لأنَّه مأدبة الله -تعالى- إلى خلقه، ومائدته للنَّاس أجمعين، كما وصفه المُنزَّل عليه ﷺ[3]، كتاب لا تفنى عجائبه وأسراره، ودلالات

---

(١) ورد اسم الله تعالى العظيم في القرآن تسع مرات، وعلينا أن نتدبَّر تلك المواضع التي ورد فيها، ونتأمل ما فيها من معاني التعظيم لله عزَّ وجلَّ.

(٢) الحُجة في بيان المحجَّة وشرح عقيدة أهل السُّنَّة (١/ ١٤١-١٤٢).

(٣) جاء في الحديث: «**إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته، كل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول لكم ألم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف**».

والحديث أخرجه الحاكم: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وردَّه الذَّهبيُّ لوجود رجل في السَّند، قال عنه: «إبراهيم بن مسلم ضعيف»، وأخرجه الطبراني (٨٦٤٦) من طريق عبد الرزاق (٣/ ٣٧٥-٣٧٦)، والدَّارمي (٢/ ٣١٠)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥)، والشَّجري (الأمالي ١/ ٨٤) موقوفًا على عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هداياته ذوات أغوار مليئة بالكنوز، والتي لا يستخرج دررها إلَّا أهل الغوص والاجتهاد، والمحاطون بتوفيق الله وإلهامه، وهو كما قال الرَّاغب الأصفهاني في وصفه له:

كالبدر من حيثُ التفتَ رأيتَه ... يهدي إلى عينيك نورًا ثاقبا

كالشَّمس في كبد السَّماء وضوؤها ... يغشى البلاد مشارقًا ومغاربًا

لكنَّ محاسن أنواره لا يثقفها إلَّا ذوي البصائر الجلية، وأطايب ثماره لا يقطفها إلَّا الأيدي الزَّكية، ومنافع شفائه لا ينالها إلَّا النُّفوس الطاهرة النقية، كما قال -سبحانه- في وصف مُتناوليه في الملأ الأعلى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة]، وقال في وصف سامعيه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فُصِّلَت: ٤٤].

فالقرآن الكريم بحر زاخر بالهدايات والعبر التي لا بدَّ لاستخراج دررها المودعة فيه، من غوص وتدبُّر وتفكُّر، وفقه مُسند بالكتاب والسُّنَّة، وقادر على إيجاد الحلول للمشاكل المستجدة في عصرنا وفي كلّ العصور، من خلال هداياته الهادية، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الكهف]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

تعظيمه تعالى أساس العبادة، والعبادة وعاء للعبودية:

بَيّن الله -تعالى- في كتابه العزيز في مواضيع عديدة، و بأساليب بيانية مختلفة= أنَّه لم يخلق الخلق، ولم يبعث الرَّسل، ويُنزل الكتب، إلَّا من أجل تحقيق غاية تعتبر من أسمى الغايات التي خلق جميع خلقه من أجلها، ألا وهي التَّوجه إليه وحده -سبحانه- بالعبادة والطَّاعة؛ لأنَّه وحده العظيم المُتعالي في ملكه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، والعبادة التّى خلق الجنّ والإنس لها -كما قال الإمام فخر الدّين الرّازي في تعليقه على هذه الآية- هى: «التّعظيم لأمر الله والشّفقة على خلق الله، فإنّ هذين النّوعين لم يخلُ شرعٌ منهما، وأمّا خصوص العبادات فالشّرائع مختلفة فيها بالوضع والهيئة والقلّة والكثرة والزّمان والمكان والشرائط والأركان»[1].

(١) التّفسير الكبير = مفاتيح الغيب (٨/ ٢٠٠).

وقيمة العبادة تكمن في القدر الذي تنطوي عليه من معانى العبودية، لأن الذي يقرب العبد إلى حب الله وخشيته وطاعته، يتحقق بقدر شعور العبد وتوجهه بالعبودية له وحده سبحانه، وبهذا يظهر بجلاء أن حقيقة العبادة وأساسها وروحها إنما ينبع من مدى تعظيمه تعالى وخشيته وحبه، وإنما شُرعت العبادات وسيلة لذلك، وقد ذكر المناوي في تعريف العبادة أنها «فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيمًا لربه. وقيل -أي: العبادة-: هي تعظيم الله وامتثال أوامره»[1]، والعبودية هي الذُّلّ الذي يُهيمن على كيان الإنسان ومشاعره لخالقه، فيقوده إلى تعظيمه ومهابته، وإلى الالتجاء الدائم إليه وحده بالاستغفار والدعاء والرجاء، ومن ثم فالمؤمن الخالص لا يدين بالولاء والتعظيم لأي كائن غيره؛ لأنَّه -جلَّ ثناؤه وحده- الجامع لجميع صفات العظمة والعلو والكبرياء.

ولقد عُني القرآن الكريم بدعوة العباد إلى تعظيم الله تعالى عناية كبيرة، فجاءت هدايات القرآن الكريم في مواضيع كثيرة وبأساليب بيانية عديدة للدعوة إلى تعظيمه سبحانه، ولا يكتفي القرآن بعرض عظمة الله وتجلياتها في مخلوقاته وآثاره مرّة أو مرّتين، بل يعرضها مرّات ومرّات بأساليب مختلفة، وفي مجالات متعددة، لترسيخها في النفوس، وتثبيتها في القلوب.

ولا شكَّ أنَّ اهتمام القرآن الكريم بذكر تعظيمه -سبحانه- في مواضيع متعدِّدة من سوره، وبأساليب مختلفة، يدلّ دلالة قاطعة على أهمية هذا الموضوع، في تحصيل الهداية وتحقيق كمال العبودية له -سبحانه- بتعظيمه وإجلاله.

فتعظيمه -سبحانه- يتضمن معنًى كليٌّ ومعنًى نفسيٌّ، يُعتبر من أشرف الأعمال القلبية التي توثق صلة المؤمن بربِّه، وتُشَكِّل جانبًا محوريًّا في عقيدة الإسلام، وعليها يتأسَّس الإيمان الصادق، ويرسخ في قلوب المؤمنين وأفئدتهم؛ لأنَّه وحده العظيم في ذاته، والعظيم في أسمائه وصفاته كلّها: في سمعه وبصره، وفي قدرته وقوّته، عظيمٌ في علمه، ولا يجوز قصر عظمته -جلَّ ثناؤه- في شيء دون شيء، لأنَّ ذلك تحكم لم يأذن به الله، وتعظيم الله معنًى يندرج تحت معنًى إيمانيٍّ أكبر، يشتمل أيضًا على عددٍ من المعاني الإيمانيَّة الأخرى، كما في الإيمان بالرُّسل، أو الإيمان بالكتب، أو نحو ذلك.

---

(١) التّوقيف على مهمات التعاريف (٤٩٨).

دلالات العلم ب (السنن الإلهية) على عظمة الخالق سبحانه في هدايات القرآن الكريم

أ/ تعظيم الله -جل ثناؤه- لا يقوم على الجهل أو على مجرد التخرص أو الظن والخيال

إنَّ تعظيم الله -جلَّ ثناؤه- لا يمكن أن يقوم على الجهل أو على مجرد التخرص والخيال، أو على التقليد الذي لا يتأسس على علم، لأن تعظيمه سبحانه وخشيته من العقيدة التي لا بد أن تتأسس على العلم واليقين في الله سبحانه، ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

والعلم بالله -تعالى- لا يقف عند حدٍّ معيَّن، وإنَّما المطلوب من المرء أن ترتقى معرفته وعلمه بربِّه باستمرار وعلى وجه الدَّيمومة، ومن هنا: كان الطلب في الآية لرسول الله ﷺ بأن يعلم معنى لا إله إلا الله، فقال سبحانه: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد: ١٩]، مع أنَّه ﷺ أعلم خلق الله بهذه الحقيقة، ولكن الله -سبحانه- أراد من خلال هذا أن يذكِّر سائر عباده بأهمية وضرورة تجديد وتعميق العلم بهذه الحقيقة الخالدة المتمثَّلة في توحيده سبحانه، ولهذا فليس من العبث أو الصُّدفة أن تتضمن أوَّل آية نزلت من القرآن الكريم= الأمرَ بالقراءة باسم الله الخالق العظيم، حيثُ قال تعالى مخاطبًا نبيَّه الكريم ﷺ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾[العلق]، وإذا تتبعنا الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تحدثت عن فضل العلم بالله وأسمائه، ومعرفة عظمته من خلال آثار قدرته في خلقه، وجدنا مادة حية ناطقة وغزيرة تبين أهمية العلم بهذا الجانب.

ومن حكمته تعالى أن هيأ الإنسان وفطره على حب المعرفة والرغبة في السعي لاكتشاف أسرار الموجودات في الآفاق والأنفس، ولهذا أكرم الحق سبحانه الإنسان بأدوات المعرفة، وزوده بوسائل الاكتشاف: من سمع، وبصر، وفؤاد، وسائر الحواس، وحثه على التفكر والتدبر والسير في الأرض والنظر في الآفاق للوصول إلى كنه الحقائق المختلفة من حوله، والاعتبار بكل ذلك.

ذلك أنَّ من ثمرات العلم اليقيني ونتائجه= تحصيلُ المحبّة والخشية والتّعظيم لمن له وحده القدرة والعظمة التي تظهر تجلياتها في كلّ سكنات وحركات كلّ كائن من كائنات هذا الكون العظيم، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٤﴾ [الحج]،

فشهود عظمته سبحانه في الوجود إذا تحقَّقت بالعلم وتشبعت منها النُّفوس والعقول تنفعل بها سائر مشاعر الانسان، فتفيض تعظيمًا ومحبَّة وخشيةً لله سبحانه؛ لأنَّ عظمته حينئذ لا تبقى مجرد خواطر أو انطباعات طارئة تطرأ على النفوس لتزول بعد ذلك، أو يخفت توهجها بفعل الزَّمن، أو تغير الأحوال، أو بفعل التَّعوُّد وتبلُّد الأحاسيس، بل تستمر وتتجدد بتجدد النَّظر واستمرار التَّفكُّر في آيات الملك والملكوت: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت].

لهذا جاءت كثير من الآيات التي تأمر بالنَّظر في خلق الله، والتَّثبُّت في رؤية عجائب الكون وآثار السَّابقين، مقترنة بالأفعال المصاغة بصيغة المضارع (يعقلون، يتفكرون، يروا، ينظروا) للدَّلالة على الاستمرار وإدامة الرُّؤية أو النَّظر. وكما يقول بعض الصُّلَحاء: «من عرف الله -عزَّ وجلَّ- اكتفى به، ومن لم يعرفه اكتفى بخلقه دونه، فطال غمُّه، وكثرت شكايتُه»(١).

وإنّ مما يُستفاد من التوجيه القرآني المستمر إلى النظر والتفكر والاعتبار بآياته في الآفاق والأنفس، هو تربية الإنسان باستمرار على استحضار عظمته المُتجلية في خلقه، ومن ثم خشيته وتعظيمه باستمرار حتى يصل العبد إلى حالة إيمانية يستقر القلب عليها لتفيض على كل السلوك والأعمال وتُشكل كل مشاعره، فيصير سبحانه أقرب وأحب لديه من كل شيء، وتكون عبوديته له وحده إخلاصًا وتعظيمًا، وهكذا في بقية المشاعر فتظهر تبعًا لذلك الثِّمار الطيبة لهذه المعرفة النافعة كما قال ﷺ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»(٢).

وكلما ازدادت مساحة هذا النظر والتدبر والتفكر في آياته سبحانه وفي العلم ببعض أسرار سننه تعالى الحاكمة الكامنة خلف كل حركة أو سكون لهذه الكائنات في الآفاق وفي الأنفس، كلما تحقق هذا وتعمق وازداد، وتعمق كذلك انجذاب المشاعر لله عز وجل، وتمكّن الإيمان أكثر من القلب، وتجلت أنواره في سائر أحوال ومعاملات الإنسان، وظهر أثر ذلك على معاملة المرء لربه، فيعبده كأنه يراه. يقول ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «غاية الحاصل للقلوب في الدنيا هو تجلي أنوار الإيمان في القلب، وحتى يصير الغيب كأنه شهادة»(٣).

---

(١) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس (٨٠-٨١).

(٢) حديثٌ متفق عليه.

(٣) استنشاق نسيم الأنس (٩٨).

وهذا هو الفارق بين الإيمان الأصيل الناتج عن التأمل والنظر آيات الآفاق والنفس، الثابت الذي يستقر في القلب وتصدقه الأعمال، وبين الإيمان المُتذبذب والعابر الذي يُنتج أعمالًا آنية وناقصة أو صادرة عن رياء أو نفاق.

يقول الحسنُ البصريُّ: «ليس الإيمان بالتَّحلِّي ولا بالتَّمنِّي، ولكن ما وَقَرَ في القلب، وصدقته الأعمال»(١).

ب- السنن الإلهية و دلالتها الواضحة على عظمة الخالق وتعظيمه سبحانه

لعلَّ من أهم تجليات عظمة الله المُشاهدة في جميع خلقه المُتجلية في أفعاله وتدبيره لأمور خلقه كلها، أن كل شيء في هذا الوجود مهما بدا صغير الحجم، أو قليل الشأن في نظر الناس، إلا ويخضع في حركته أو سكونه لعظمة الله سبحانه المتمثلة في سننه تعالى التي فطر الخلق عليها، بل إن الورقة الصغيرة لا تنبت، أو تسقط من أغصانها إلا وفق هذه السنن، فالكلّ خاضع لحكم الله، خاضع لسُننه التي لا تبديل ولا تحويل لها، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾[فاطر]، وممَّا يؤكِّد أهمية موضوع السُّنن عامّة، وعلاقة تدبرها بتعظيمه خاصَّة، هو أنَّ المتدبِّر لكتاب الله -تعالى- يجد فيه آيات كثيرة، تتضمن الإشارة للسُّنن الإلهية الدَّالَّة على عظمته -سبحانه- في الآفاق والأنفس، سواء بشكل مباشر وصريح، أو من خلال الدَّعوة للتَّفكر والنَّظر والاعتبار.

وتُعد قضية السُّنن الإلهية -بأقسامها المختلفة- وطريقة التعامل معها، وسُبل تسخيرها وفقه طريقة سريانها، والانسجام معها وعدم مصادمتها، واستثمارها في غرس التّربية على تعظيم الله وخشيته وإخلاص العبودية له وحده -أفرادًا وجماعات- من القضايا المُهمة، ومن الحقائق الجليلة المرتبطة بكتاب الله وسنة نبيه الكريم، وبأحوال المسلمين وواقع الأُمَّة حاضرًا ومستقبلًا. وفي هذا دعوة واضحة لضرورة أن يعتني المسلمون بهذا الموضوع، وأن يولوه من الأهمية ما يستحق كباقي مواضيع القرآن العظيم. وكما ذكر صاحب المنار رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا إرشاد إلهي لم يعهد في كتاب سماوي، ولعله أرجئ إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده الاجتماعي فلم يرد إلَّا في القرآن الذي ختم الله به الأديان»(٢).

---

(١) شعب الإيمان (١/ ٨٠).

(٢) تفسير المنار (٤/ ١١٦).

غير أنه على الرغم من كل هذا أرى أن هذه القضية لم تحظ بعد بالعناية التي تتناسب مع مكانتها وأهميتها في المنظومة التصورية والتربوية الإسلامية، ولم تنل حقها من البحث، ولم تحظ بالدراسة والتتبع الدقيق سواء من قبل العلماء القدامى أو المحدثين «ولم يقصر المصنفون من المتقدمين والمتأخرين في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله تعالى في الأمم والجمع بين النصوص في ذلك، والحث على الاعتبار بها، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام وقواعد الكلام لأفادوا الأمة ما تحفظ به دينها ودنياها. فإن العلم بسنن الله -تعالى- في عباده لايعلوه إلا العلم بالله -تعالى- وصفاته وأفعاله، بل هو منه أو من طرقه ووسائله»[(١)].

وهذه «النظرة القرآنية للسُّنن الإلهية تجعل منها أحد أكثر الظواهر دلالة على الإعجاز الكوني، والعمراني، والحضاري للقرآن الكريم، ولنظرته الوجودية. وتجلي السنن الإلهية على المستوى الكوني، وجريانها في ظواهره الطبيعية والمادية والبشرية، وضبطها لحركة الاستخلاف البشري على مستوى التصور والنظرة، وتحكمها في العمران الحضاري الإنساني على المستوى الفعلي، دليل على الأهمية التي يوليها القرآن للسنن، والمكانة التي تحتلها ضمن بنائه التصوري الكوني العامّ»[(٢)].

ويرى بعض الدَّارسين «بأن تراثنا الثقافي لم يحفل- قبل القرن الأخير- بدراسات مفردة في (السنن الإلهية) بالمعنى الاصطلاحي أو العلمي المحدد؛ هذا مع العلم أن كثيرًا من المفكرين وبعض رواد الحركات الاصلاحية التي عرفها العالم الإسلامي الحديث كانوا ينادون بضرورة الاهتمام ببعض جوانب هذا الموضوع في علاقته بحركة الأفراد والجماعات والأمم»[(٣)].

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٢) ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية (٤٣، ٤٤).

(٣) من أهم المؤلفات التي تخصصت في موضوع السُّنن أذكر ما يلي: السنن التاريخية في القرآن الكريم لباقر الصدر، وكتاب السنن الإلهية: في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية لعبد الكريم زيدان، وسنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها لمحمد هيشور، وسنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم للشيخ محمد الصادق عرجون، وأصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم: كشاف موضوعي خصص الجزء الأول منها: السنن الإلهية في الآفاق والأنفس والأمم لزينب عطية محمد.
كما قُدِّمت عِدّة رسائل وأطروحات جامعية مؤخَّرًا حول جوانب من هذا الموضوع يصعب أن أذكرها كلّها هنا.

كما أن من بين أهم التفاسير الحديثة التي اهتمت بموضوع السنن: (تفسير المنار) للشيخ رشيد رضا، وتفسير (في ظلال القرآن) لسيد قطب. ويذهب صاحب المنار رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى درجة الدعوة إلى بناء علم جديد يكشف عن هدايات القرآن الكريم في مجال السنن فيقول: «إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننًا، يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علمًا من العلوم، لنستلهم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بينها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه، والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها، ومعرفة حقيقتها»[1]

غير أن بعض هذه الدعوات والكتابات التي تناولت هذا الموضوع ظلت في الغالب دعوات عامة، ونداءات لم تجد من يستجيب لها من الناحية العملية، كما أن التناول اقتصر أكثر بربط هذه السنن بالجانب الإصلاحي الاجتماعي ولم يسع إلى ربطها بالبُعد العقدي الذي يرى في هذه السنن جوانب عظمته وتقديره سبحانه، وهذا هو الأصل في الإحالة على الاعتبار بها في القرآن الكريم، في جميع جوانبها بما في ذلك الجانب الاجتماعي.

(١) تفسير المنار (٤/ ١١٤-١١٥).

السُّنَّة والسُّنن في اللغة

كلمة سُنَّة من الفعل الثُّلاثيِّ: (سَنّ) بفتح السِّين المهملة وتشديد النُّون من مادة: (س ن ن)، وللكلمة في معاجم اللغة معاني عديدة، تتراوح بين الحقيقة والمجاز، وتختلف دلالتها بحسب اختلاف وجوه استعمالها في اللغة العربية، ومن دلالتها كما قال الرَّازيُّ: «الطَّريقة، يُقال: استقام فلان على سنن واحد. ويقال: امض على سَننك وسُننك، أي: على وجهك. وتنحّ عن سَنن الطريق وسُننه. والسُّنَّة: السَّيرة»[1].

وفي (لسان العرب): «وسُنَّة الله: أحكامه وأمره ونهيه، وسننها الله للناس: بيَّنها، وسنَّ الله سُنَّة، أي: بيَّن طريقًا قويمًا. والسُّنَّة: السيرة، حسنة كانت أو قبيحة. والسُّنَّة في الأصل: سُنَّة الطريق، وهو طريقٌ سنَّه أوائل النَّاس، فصار مسلكًا لمن بعدهم. وسُنن الطريق، وسَننه: محجَّته، والسُّنن: الطريقة، يقال استقام فلان على سنن واحد. والسُّنن: القصد، وجاءت الرِّياح سنائن: إذا جاءت على وجه واحد وطريقة واحدة لا تختلف. وبنى القوم بيوتهم على سَنن واحد، أي: على مثال واحد»[2].

وقد أرجع الإمام ابنُ الأثير معنى السُّنَّة وما تصرَّف منها إلى معنًى جامع، هو: «الطَّريقة والسِّيرة»[3]. وبهذا قال كثيرٌ[4]، ويمكن أن نستنتج من كلّ هذا: أنَّ من معاني ودلالات السُّنَّة في اللغة أنّها: المثال المُتَّبع، والطريقة المسلوكة، والشَّريعة، والاتِّباع، والعادة والاقتداء، والحكم.

كلمة (سنة) في القرآن الكريم والسنة النبوية

وردت كلمة (سُنَّة) في القرآن سبعَ عشرةَ مرَّة برسوم مختلفة: (سُنَّت، سُنَّة، سَنَن)؛ وهذا اللفظ من المصطلحات القرآنية التى أكسبها استعمالها في القرآن الكريم دلالة خاصَّة زائدة على الدلالات التى كانت لها في اللسان العربى، فصارت مصطلحًا من المصطلحات التى صاغها الأسلوب القرآني الحكيم لتُعبر عن معان خاصَّة جديدة ضمن الهدايات القرآنية الشَّاملة،

(١) مختار الصحاح (سنن)، وانظر كذلك القاموس المحيط للفيروز ابادي (سنن).

(٢) لسان العرب (سنن ٦/ ٣٩٥).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (سنن ١/ ٨١٣).

(٤) قال الإمام الرازي في (تفسيره ٩/ ١١): «والسنة: الطريقة المستقيمة والمثال المتبع».

والمتتبع لتفسير هذه الكلمة في كُتب التفسير يجد تباينًا بين أقوال المفسرين في تحديد دلالتها، ويجد أنّها من الألفاظ المشتركة[١] التى تتعدد دلالاتها وتختلف بحسب اختلاف السِّياقات الذي ترد فيها، لهذا نجد على سبيل المثال أنّها تأتي بمعنى: كلّ ما له دلالة الاقتداء والاتباع، كالإمام والسِّيرة، والطريقة والعادة، والدَّوام على فعل الشَّيء.

وسُنَّة الرُّسل: هي الشَّرائع الإلهية المُنزَّلة لهداية الأمم، وسُنَّة الله: ما جرى به نظامه وعادته -تعالى- في خلقه.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية بأنَّ (السُّنَّة) في القرآن هى: «العادة التى تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول. والله أخبر أنَّ سنته لن تُبَدَّل ولن تتحوَّل، وسنته عادته التى يُسَوِّي فيها بين الشَّيء وبين نظيره الماضي، وهذا يقتضي أنَّه -سبحانه- يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة، ولهذا قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾[القمر: ٤٣]، وقال: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾[الصافات: ٢٢]، أي: ونظائرهم. وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير]، أي قرن النَّظير بنظيره. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾[البقرة: ٢١٤]»[٢].

وبما أنَّ السُّنَّةُ هى الْعادة التي تتضمن أن يفعل في الثَّاني مثل ما فعل بِنظيره الأوَّل؛ فقد أَمر سبحانه بِالاعتبار، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾[يوسف].

---

(١) المتتبع لأساليب الخطاب في اللغة العربية، يرى كثيرًا ما تُسمَّى الأشياء الكثيرة باسم واحد، كما نرى ذلك في لفظ (عين)، فإنه يطلق على الماء والمال والسّحاب والجاسوس وغير ذلك، وهذا ما يدعى في اللغة بالمشترك. قال البَزْدَوي في (أصوله): «المشترك: كل لفظ احتمل معنى من المعاني المختلفة، أو اسمًا من الأسماء على اختلاف المعاني على جهة لا يثبت إلَّا واحدًا من الجملة مرادا به» أصول التفسير وقواعده (٣٩١).

والمتدبر لكتاب الله -تعالى- يجد فيه كثيرًا من الآيات التي تتضمن مثلَ هذه الألفاظ المشتركة التي تدلّ على أكثر من معنى، كما أنَّ المصطلح القرآني تتباين دلالاته بتباين امتداداته داخل النَّسيج المفهومي للنَّصِّ القرآني، وتختلف معان مبانيه باختلاف القضايا التي طرح فيها هذا المصطلح.

(٢) مجموع الفتاوي (٧/ ١٣، ١٦).

وممَّن تعرَّض لتعريفها من المتأخرين سيّد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره) حيثُ ذكر أنّها -أي: السُّنن-: «النواميس التى تحكم حياة البشر وفق مشيئة الله الطليقة، وأن ما وقع منها في الماضي يقع في الحاضر إذا أصبحت حال الحاضرين مثل حال السَّابقين»[(١)].

واعتبارًا لهذا الأصل المشترك لكلمة سُنَّة يمكن القول بأنَّ السُّنن الإلهية هي: طريقته -تعالى- وما جرت به حكمته وعادته وتقديره في خلقه؛ في الآفاق والأنفس والأمم، وكلّ شيء في هذا الوجود مهما بلغ حجمه صغيرًا أو كبيرًا، بسيطًا أو مركبًا، محسوسًا أو غير محسوس إلَّا وتحكمه هذه السُّنن طوعًا أو كرهًا، ولا يملك أحدٌ من خلقه تبديلها أو وقف اطرادها وجريانها، غير أنَّ فهمها وتدبُّر كيفية جريانها وعملها يؤدِّي إلى تجنب مصادمتها، والتَّفاعل الإيجابي معها، واستثمارها لتحقيق متطلبات التَّعمير ومقتضيات التَّكليف والاستخلاف.

ويمكن أن نختار من بين التَّعاريف المتعدِّدة للسُّنن عند بعض المُحْدَثين بأنّها: «منهج الله تعالى في تسيير هذا الكون وعمارته وحكمه، وعادة الله في سير الحياة الإنسانية، وعادته في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين طبق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله»[(٢)].

كما وردت كلمة سُنَّة وجمعها سنن في الحديث النَّبوي الشَّريف بهذا المعنى اللُّغوي الجامع الذي يعني الطَّريقة والسِّيرة، ومن الأحاديث النَّبوية التي وردت فيها هذه الكلمة:

- عن أبي سعيد الخدريِّ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**»، قلنا: يا رسول الله اليهود والنَّصارى؟ قال: «**فمن؟**»[(٣)].

  في رواية أخرى: قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بَاعًا بِبَاعٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، وَشِبْرًا بِشِبْرٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمْ مَعَهُمْ**»، قالوا: يا رسول الله اليهود والنَّصارى؟ قال: «**فمن؟**».

- ومنها قوله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**»[(٤)].

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٤٨٠).

(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية (٢٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (١٠١٧).

طريقة عرض القرآن الكريم للسنن:

عرض القرآن الكريم جملة من السنن عرضا مباشرا، كما أشار إلى سنن أخرى إشارات غير مباشرة حيث تُستنبط من تعابير ودلالات آياته الكريمة. ويتميز الأسلوب القرآني بشكل عام في عرضه لهذه السنن بالإيجاز المحكم والإجمال المعجز. قال الشيخ محمد عبده: «أجمل القرآن الكريم الكلام عن الأمم وعن السنن الإلـهية وعن آياته في السموات والأرض، وفي الآفاق والأنفس وهو إجمال صادر عـمن أحاط بكل شيء علما، وأمرنا بالنظر والتفكر والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالا ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة»[(١)].

والناظر في الآيات التي تتضمن الإشارة إلى هذه السنن يدرك أن كمال القرآن الكريم في هذا المجال هو كمال التنبيه إليها والدعوة إلى التفكر فيها، والبحث في كيفية جريانها بقصد اكتشاف أقوم السبل لتسخيرها، ومجانبة مصادمتها، وبهذا فإن القرآن الكريم، وإن لم يعرض بتفصيل لكل السنن التي تحكم هذا الوجود، واكتفى بمجرد الإشارة إلى بعضها بشكل مجمل، إلا أنه في مقابل هذا أكد على ضرورة اتباع كل السبل التي تؤدي إلى كشفها وتسخيرها، حيث دعا إلى التعلم وأكد على التفكر والنظر إلى الخلق والسير في الأرض، والاعتبار، وكل هذه السبل تؤدي لا محالة إلى كشف هذه السنن، وإدراك بعض جوانبها.

وينسجم العرض المجمل لهذه السنن مع أسلوب القرآن الكريم التربوي الذي جاء ليتدبره الناس كافة فلا يحرم أحد من هداياته وبركاته مهما كان علمه، ودرجة إدراكه. كما أنه بهذا الأسلوب التوجيهي والتربوي الحكيم يتحقق الخلود لهذا الكتاب العزيز حيث تبقى آياته وسوره على مدار العصور والأزمان تمد كل من يتأمل في مضامينها بأسباب الهداية والرشاد، وتكشف باستمرار عن أوجه من عظمة الحق سبحانه، وكما قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالقرآن على اختصاره جامع، ولا يكون جامعا إلا والمجموع فيه أمور كليات، لأن الشريعة الإسلامية تمت بتمام نزوله»[(٢)].

وبهذا يتميز البيان القرآني الكريم في كونه يعطيك معان غير محدودة في كلمات محدودة.

---

(١) مشكلات القرآن (١٧-١٨).

(٢) الموافقات (٣/ ٣٤٦).

إن طريقة عرض القرآن الكريم لهذه السنن طريقة منسجمة مع عرضه الأساس الذي يتمثل في دعوة الناس كلهم إلى أن يكونوا عبيدا لله عز وجل بالفكر والاختيار كما خلقهم عبيدا بالجبر والاضطرار، لأنه وحده سبحانه المستحق للعبادة والتعظيم.

أقسام السنن ومجالاتها في هدايات القرآن الكريم:

والقرآن الكريم كما هو معهود في أسلوبه المعجز، لا يعرض لأقسام هذه السنن منفصل بعضها عن بعض، بل يقدمها عبر آياته المختلفة على أنها أجزاء ووجوه لحقيقة واحدة، هي حقيقة وجوده سبحانه تعالى وعظمته ووحدانيته في ربوبيته وأسمائه وصفاته، ودليل وبرهان على استحقاقه وحده أن يتوجه إليه بالعبادة والخشية الخالصة، لذا فإن القرآن الكريم حينما يعرض لأطراف من السنن الكونية في الأرض أو في السماء، ويدعو إلى التأمل فيها، والتدبر في سريانها وجريانها والتفكر في خلقها، فإنما يفعل ذلك لإدراك ملكوت هذا الرب العظيم، والنظر إلى فائق حكمته وواسع تدبيره. ويقدم كل هذا بأسلوب واضح يشترك في إدراكه وفهم أغراضه سائر الناس. وهذا الأسلوب لا يقرن بل ولا ينبغي أن يقارن بذلك الأسلوب الكلامي أو الفلسفي الذي انحرف في بعض فترات التاريخ الاسلامي من أسلوب يقدم عقيدة الإسلام وهداياته العديدة تقديمًا ربانيًا يورث الإيمان واليقين القلبي، إلى تقديم يقوم على مقدمات عقلية ومنطقية تورث الجدال وتبني العقيدة على جملة من الأقيسة العقلية والمنطقية التي تفتقد كثيرا إلى حلاوة ويسر وشمولية الهدايات القرآنية في مجال العقيدة والإيمان.

ويمكن تقسيم مجالات السُّنن كما وردت في هدايات الكتاب العزيز إلى ما يلي:

أولا: السنن الكونية العامة التى تحكم المجال الكوني. (آيات الآفاق)،

ثانيا: السنن التشريعية.

ثالثا: السنن التي تحكم المجال الإنساني، (آيات الأنفس)

وهذه الأخيرة تنقسم بدورها إلى عدَّة أقسام، منها: **السنن الاجتماعية، والسنن التاريخية، وسنن الهدايات (التشريعية)، وسنن التأييد.**

أولا: السنن التي تحكم المجال الكوني

يقصد بالسُّنن الكونية تلك النواميس العامة التي تحكم كل أجزاء هذا الكون في حركته وسكونه، وكذا في تحديد وتنظيم علاقة هذه الأجزاء بعضها ببعض. والسنن الكونية كما

عرَّفها ابن تيمية: «الارادة القدرية الخلقية الكونية، وهي الارادة والمشيئة المستلزمة لوقوع المُراد والشاملة لجميع الموجودات»[١].

ومن أمثلة هذه السُّنن الكونية الإلهية التى يسير بمقتضاها نظام كل مكونات هذا الكون الرحيب: «سُنَّته في الشَّمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من العادات»[٢].

وعلى ضوء هده السنن يتشكَّل نظام كلّ الموجودات، فتدور الكواكب في مداراتها لا تتخلف ولا تختلّ عنه، ولا يقع بينها التَّصادم أثناء حركتها، ولا يخرج الواحد منها عن مداره، ولهذه الكواكب وظائفها وآثارها كلٌّ في حدود ما خلق من أجله[٣].

وآيات الله التى تتجلَّى في سننه الكونية لا تظهر على حقيقتها، ولا تؤدّي مفعولها إلا للقلوب الحَيّة الذاكرة والمُعظمة لخالقها، والتى تنظر بعين التأمل والتدبّر إلى عظمته تعالى كما تتجلى في الكون، تلك النظرة التى تتجاوز حدود النظر إلى الكائنات المشهودة، لتُدرك جوانب من مظاهر عظمة الخالق سبحانه، الكامنة فيها، فتنحنى طاعة وتقرُّبًا وإجلالًا لآيات الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[آل عمران].

ويدرك بعض أسرار عظمته وحكمته -تعالى- في أن يخلق كلّ أجزاء هذا الكون الفسيح وفق سنن مطردة، ونواميس ثابتة، لا تتبدل أو تتغير، ولا يملك أحدٌ أن يُنازعه في عظمته وقدرته فيقدر على خرق اطرادها أو تبديل جريانها. ولولا انتظام حركة الكون وخضوع كل شيء فيه لهذا النظام السنني الدقيق، ما كان بإمكان الإنسان الضعيف أن يعيش فيه، ولا أن يملك أية قدرة على تسخير خيراته لتحقيق صلاحه ومعاشه. ولو اختلفت فطرة الإنسان وتركيبه عن نواميس هذه الأرض ما استطاع الحياة عليها، فضلا عن الانتفاع بها وبما فيها. ولو اختلف تركيبه الجسدي عن الدرجة التى يحتمل فيها هذه الأرض، واستنشاق هوائها، والتغذي بطعامها والارتواء بمائها لما عاش لحظة. ولو اختلفت كثافة بدنه أو كثافة الأرض عما هى عليه ما استقرت قدماه على الأرض، ولاطار في الهواء أو غاص في الثرى، ولو خلا وجه هذه الأرض من الهواء، أو كان هذا الهواء أكثف مما هو أو أخف لاختنق هذا الإنسان أو لعجز عن استنشاق الهواء مادة الحياة! فتوافق نواميس هذه الأرض وفطرة هذا الإنسان هو الذي سخر الأرض وما فيها لهذا الإنسان، وهو من أمر الله.

---

(١) مجموع الفتاوي (٨/ ١٨٨)، وينظر كذلك: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (١/ ١١٣).
(٢) جامع الرسائل والمسائل (٥٢).
(٣) السنن الالهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم (٣٧).

وتسري سنن الله الكونية في اتساق غريب، وتنسيق عجيب مع سنن الله كما أوردها القرآن الكريم؛ الشيء الذي يجعل هذه الأخيرة مفتاحا لفهم حركة الكون وسننه واكتشاف أسراره، حيث يبدو للمتأمل في كل جزء من أجزاء هذا الوجود الكوني الفسيح مهما بدأ صغره أن هناك سننا دقيقة تحكمه بصورة تدعو إلى مزيد تعظيمه سبحانه وخشيته. ذلك لأنه سبحانه لم يترك شيئا للصدف، أو للعبث[١].

فالمتدبر للسنن القرآنية يجدها قواعد كلية، مترابطة، متسقة، يربطها خيط رفيع بين الأسباب ومسبباتها، وبين الأعمال ونتائجها، كأنها معادلات رياضية تتحكم في الكون ونواميسه. وهذا ما يؤهلها لدخول أبواب العلوم من أوسعها؛ إذ «هى رؤية تمتلك كامل مقوماتها وحتى مقدماتها المادية في الدنيا، ونماذج السنن التى تحكمها، حيث يمدنا التاريخ بدليل صدقها وفاعليتها، ويضعنا على عتبة المستقبل متحققين بالزاد المطلوب»[٢].

علاقة تدبر السنن الكونية الواردة في القرآن الكريم بحصول تعظيمه سبحانه

أورد القرآن الكريم آيات عديدة عن الكون وذكر بعض تجلياته، فتارة يورد الآيات السماوية مقترنة بالآيات الأرضية، وأخرى يذكر الآيات الأرضية منفردة للتنبيه على عموم الاستدلال بها، لقربها من مشاهد الحس الممد للعقل العام عن طريق الحواس، التي تعتبر النوافذ المادية التي يستطيع العقل أن يدرك بواسطتها في أوائل خطوه نحو الحقائق الكونية، الروابط والوشائج الطبيعية بين ذرات الموجودات على تنوع أشكالها واختلاف أنواعها فيحكم ويستنبط. وقد يفرد الآيات السماوية بالذكر تنبيها لأهل الاختصاص من العلماء لينقلهم على سفائن الفكر من عوالم الأرض إلى آفاق السماء، لينظروا إلى ما أودع الله فيها من آيات أجل وأعظم مما أودع في الأرض، مع تيسير السبل العامة في النظر المتأمل الذي يحرك وجداناتهم ويوقظ إحساسهم لتتوثق عرى الإيمان القطعي في قلوبهم[٣].

وهكذا يجد الناظر في الكون وآفاقه نفسه مليء بالشعور بجلال الله ومُدرك لأوجه عظمته، فيرى الكون كلّه أجرامه ونجومه، صامته وناطقُه، بحوره وجباله وصحاريه، يجده

(١) الإسلام يتحدى (٦٨-٦٩).
(٢) المستقبل للإسلام (١٢- ١٣).
(٣) القرآن العظيم -هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين (٢٧٨-٢٧٩).

كله يعكس عظمته وعلو سلطانه، ويجد كل الكائنات فيه منقادة لتدبير الله، وخاضعة لأمره وشاهدة بوحدانيته، دائمة التَّسبيح بحمده، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾[الإسراء].

يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ هنالك سننًا ثابتة لهذا الكون، يملك الإنسان أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض. وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية، وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها»[1].

فإذا تأمل الانسان في هذا الكون وتدبر آياته تعالى في الآفاق وفي الأنفس، عرف جوانب من عظمة خالقه، وأدرك جوانب من أسرار حكمته وقدرته ورحمته: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[يونس]، ولا يسع المُتدبر والمتفكر في هذه الآيات في الأخير إلَّا أن يُقِرّ بعظمته -سبحانه- في خلقه فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[آل عمران: ١٩١].

ثانيًا: السنن التي تحكم المجال الإنساني وعلاقتها بتعظيم الله سبحانه

إذا كانت كلّ الكائنات تخضع في حركتها وسكناتها لسنن ونواميس ربانية لا فكاك منها، فإن الإنسان كذلك -أفرادا وجماعات - ينبغي أن يخضع في حركته الإرادية وسكونه لسنن وتشريعات إلهية تجعل حركته تتآلف مع حركة باقي الكائنات من حوله، تآلف تساكن وتسخير وتعمير واستخلاف وعبودية لله الواحد الأحد.

وبهذا ينخرط الجميع في مدار الطاعة لخالق الجميع: الكون والإنسان والحياة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾[الحج].

وكلّ مَن يخرج عن هذا المدار يكون مآله الهلاك والخسران المبين. وهذه الطاعة وحدها والاستقامة على منهج الله هي السنة العامة التي يقوم عليها صلاح الأفراد والجماعات، ونجاة الأمم وسعادتها: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٦٧).

﴿رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدًا ١٧﴾[الجن]، فالله سبحانه يُعِزّ الأمم، وينصرها حين تأخذ بسنن العِزَّة والنصر، ويُذِلُّها ويهينها حين تركن إلى الباطل، ويعمُّها الفساد وتسودها سنن الهلاك والدَّمار.

وكما بيّن القرآن الكريم أن هناك سننًا عامة مطردة وثابتة تحكم المجال الكوني، بيّن كذلك أن الجانب الإنساني: النفسي والاجتماعي والاقتصادي والتاريخي، تحكمه بدوره سنن إلهية محكمة، تعكس كلها عظمة الخالق سبحانه في تقديره وحكمه وتدبيره؛ وهذه السنن منها سنن تشريعية تتمثل في الأحكام والتشريعات التي أوحى بها الحق سبحانه لأنبيائه ورسله، ومنها أخرى جبلية فطرية، لا يمكن الفكاك عنها، أو الانفلات من الانقياد لها. وإذا كانت السموات والأرضين وكل الموجودات تخضع في حركاتها وسكناتها لسننه تعالى الحاكمة، وتعكس عظمته سبحانه من خلال كل ذلك بشكل جبلي وفطري، فإنَّ الحقَّ سبحانه اقتضت حكمته أن يبتلي الإنسان أيؤمن أم يكفر فمنحه الإرادة وأقدره على الاختيار فضلا منه سبحانه؛ وجعله يحمل ما لم تستطع السموات والجبال حمله: أمانة الاستخلاف على هذه الأرض والقيام بما يلزم ذلك من شروط العبودية لله والتوجه إليه وحده، مع ما يتطلبه ذلك من حسن تعظيمه، وخشيته سبحانه.

لهذا؛ فإنَّ الحقُّ سبحانه جعل حركة الإنسان والسنن التي تحكمها منوطة في جانب مُهم منها بإرادته واختياره، ابتلاء له ليشكر ويعظّم من يستحق ذلك، أو يكفر. ومن يتأمل مسيرة الإنسان عبر التاريخ، يجد أنها حركة قائمة في جوهرها على اختلاف الناس حول من يستحق أن يتوجه إليه الانسان بالخشية والتعظيم، وحروب بين أدعياء العظمة والجبروت الذين يريدون نزاع البارئ سبحانه في كبريائه وعظمته؛ وتاريخ الرسالات والنبوات ينبئنا كيف تباينت المواقف بين أنبياء الله ورسله واتباعهم وبين الذين أرادوا أن يتوجهوا بالتعظيم لمخلوقاته فعظموا الجردان، والقرود، وألّهوا الأبقار والأصنام التي صنعوها بأيديهم ثم عظموها وتوجهوا إليها في أوقات الشدة لتنقذهم، فما أشد غفلتهم، وما أعظم تنكبهم وضلالهم عن الطريق المستقيم.

لهذا؛ وجدنا نبي الله نوحًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يتوجّه إلى قومه بهذا السُّؤال الاستنكاري الذي نجده يتردد على كثير من ألسنة أنبياء الله ورسله بصيغ وتعابير مختلفة، حيثُ يقول جلَّ شأنه: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾[نوح]، وقد قال أكثر المُفسرين: أي لا تعظِّمونه حقَّ تعظيمه!!

ومن عجيب آياته أنه سبحانه يربط بين عصيانه وعدم تعظيمه الذي يرجع إلى اختيارهم وإرادتهم؛ وبين سننه تعالى التي تخضع لها أجسامهم ولا يستطيعون الفكاك عنها والتي

وردت في قوله تعالى بعد الآية السابقة، وكأنه سبحانه يُنبههم إلى أن عدم تعظيمه تعالى يقتضي أن يملكوا زمام أنفسهم وأن يتحكموا في أجسادهم فلا تحكمهم سنة الله الجارية عليهم وعلى جميع مخلوقاته، وهي سنة النمو وتبدل الأطوار من شباب إلى شيخوخة وهرم، ومن ميلاد إلى موت ووفاة، وكلها تجليات عظمة الخالق سبحانه التي تبعث على الخشية والتقدير، قال سبحانه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾[نوح].

ثم يسترسل الحق سبحانه في إيراد آياته وسننه المبثوثة في هذا الكون الفسيح، وكأنه سبحانه يُنبِّه هذا الانسان الغافل عن تعظيم الله وإجلاله إلى أنَّه لا يُمثِّل إلَّا نقطة قليلة وضئيلة جدًّا أمام ملكوت الله الواسع، وعلى الرغم من ذلك فإنَّ هذا الملكوت المتمثِّل في السموات السبع وما فيهن من القمر والشمس وغيرها من النُّجوم والأفلاك، لا تخرج في جريانها وحركتها عن تعظيمها للبارئ سبحانه، والخضوع لحكمه وسننه سبحانه، يُفهم ذلك من خلال قوله سُبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[نوح].

وهكذا؛ فعظمته -سبحانه وتعالى- تتجلَّى في كلِّ شيء: تتجلَّى في أغوار النَّفس البشرية كما في كلّ موجودات هذا الكون الفسيح، وما يحدث فيه من سكون أو حركة، وكلّ مخلوق من مخلوقات الله يُعدّ بمثابة آية ودليل على عظمة الله وفائق تقديره وحكمه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[البقرة].

تقسيم السنن إلى: سنن فوق الإرادة البشرية، وسنن في مستوى الإرادة البشرية

أولا: سنن فوق الإرادة البشرية

وهذا الصنف من السنن (سنن قاضية) تسري على كافّة المخلوقات نباتًا أو حيوانًا أو إنسانًا، وهي سنن فوق الإرادة البشرية، تجري على الإنسان رضي ذلك أم أبى، ولا يملك من أمرها شيئا. وتشمل كل تلك النَّواميس التي فطر الله الخليقة عليها، وكذلك بلوغ السُّنن إلى غاياتها المرسومة في طبائع الأشياء ذاتها. هذه القوانين حتمية بمعنى أنّها تنطبق إذا توافرت شروط انطباقها دون حاجة إلى تدخل إرادي لأعمالها.

ولا يملك الإنسان أن يغيِّر شيئا من جريان وسريان هذا النَّوع من السُّنن، فلا يقدر مثلًا على وقف سُنَّة (التَّبدُّل والتَّغيُّر، والهرم، أو الشَّيب) أو غيرها، التي تخضع لها حياة كلّ كائن حيّ في هذا الوجود، من طور الطُّفولة إلى طور الشَّباب فالكهولة والهرم، ومن الميلاد إلى الوفاة، وهكذا.

ثانيا: سنن في مستوى الإرادة والاختيار الإنسانيين

وهذا النوع من السنن يرتبط بمستوى إرادة الإنسان واختياره، ويقع في دائرة ما يملك الإنسان توجيهه وتسخيره وفق ما يحقق المعاني السامية للاستخلاف والتعمير التي يتحمل الإنسان أمانة أدائها في هذا الكون، وهذه السنن تسري على مساحة واسعة من حياة الأفراد والأمم، تلك المساحة التي يملك فيها الإنسان القدرة على الاختيار والحرية في التصرف فهي سنن اختيارية قائمة، وهي الواقعة في الوسع والاستطاعة والإرادة وما يمكن أن يناله الإنسان ويسخره في الحياة، باستخدام القدرات المبثوثة في الخلق الإنساني المتميِّز[1].

أنواع السّنن التي تحكم المجال الإنساني

السنن التي تحكم المجال الإنساني تنقسم بدورها إلى أقسام وأنواع تضم كل الجوانب المتعلقة بحياة الإنسان فردا وجماعة، وأهم هذه الأقسام هي:

- أوّلا: السّنن النفسية.
- ثانيًا: السنن الاقتصادية.

---

(١) مدخل القيم (١٩٠).

- ثالثًا: السنن الاجتماعية والتاريخية.

أولا: السنن النفسية:

النَّفس البشرية في التَّصور الإسلامي لا تخرج بدورها عن نطاق جريان السُّنن الرَّبَّانية وعملها[١]، وعلى الرغم من كون مثل هذه السُّنن سنن خفية يصعب إدراكها وقياسها ومتابعة اطرادها، مثل تلك التي تحكم عالم المحسوسات= إلَّا أنَّ النَّظر المتفحص في مسيرة الإنسان عبر مراحل التَّاريخ يُدرك كيف أنَّ النُّفوس البشرية واحدة في كثير من انفعالاتها وتقلباتها، حيثُ تنشرح مثلًا للخير والعدل ولكلّ القيم الجميلة، وتنقبض أمام كلّ ما له صلة بالشَّرِّ والظلم والقبح وغير ذلك.

وبهذا يظهر أن نوازع الإنسان وميولاته ورغباته أمورٌ ثابتة ومطَّردة وعامّةٌ لدى بني الإنسان منذ خلقه الله إلى اليوم، وأنَّ التَّغير والتَّبدُّل لم يصب إلَّا شكل حياة الإنسان دون جوهره في الغالب. وعلى الرغم من كون الإنسان اليوم قد اتسعت مداركه، وارتقت معارفه، وازدادت قدراته، إلَّا أنَّ جوهره بقي كما كان عليه من قبل، ومن هذه السُّنن النَّفسية التي أوردها القرآن الكريم:

- **السُّنَّة التي تبيِّن العلاقةَ بين ما يُصيب النَّفس وما تفعل**، قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[النساء: ٧٩].
- **والسُّنَّة التي تحكم العلاقةَ بين الاتباع واهتداء النَّفس وتحقيق سعادتها، وبين ضلالها وحصول شقائها**، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[طه: ١٢٣].
- **السُّنَّة التي تؤكِّد العلاقةَ ما بين الإعراض عن ذكر الله وعن تعظيمه وخشيته، وبين الشَّقاء النَّفسي**، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[طه].
- **السُّنَّة التي تحكم العلاقةَ بين طاعة الله وخشيته والتقوى وسعة الرزق**، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأعراف: ٩٦].

---

(١) يمكن الرُّجوع في هذا الصَّدد إلى ما أورده د. عِزّ الدِّين توفيق في كتابه القيِّم (التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية-البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي) والكتاب في أصله رسالة علمية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه، بجامعة محمد الخامس.

- **السُّنَّة التي تحكم العلاقةَ بين تغيير ما بالنَّفس وتغيير ما بالواقع**[١]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الرعد: ١١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[الأنفال: ٥٣].

ثانيا: السُّنن الاقتصادية:

نجد أنَّ القرآن الكريم يتضمن حقائق وهدايات كثيرة حول تدبير الأموال وتنظيم الأقوات، وهذه الهدايات مُصاغة على شكل سنن إلهية حاكمة، مثل: السُّنَّة التي تتضمن بأنَّه إذا قوبل الرَّخاء الاقتصادي والتَّمكين في الأرض بالذُّنوب الدَّالَّة على عدم تعظيم الله سبحانه، يحصل الهلاك للقوم، كما ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[الأنعام: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾[غافر]، والآيتان المذكورتان تدلَّان على سُنَّة إلهية، هي: أنَّ الذُّنوب سببٌ لزوال التَّمكين وزوال الأنعم[٢].

ثالثًا: السُّنن الاجتماعية والتاريخية:

المجال المتعلِّق بحياة الإنسان فردًا وجماعةً مجال لا يخرج في التَّصوُّر الإسلامي عن الخضوع لنظام السُّنن الرَّبَّانية الثَّابت والمطرد. ويعتبر القرآن الكريم أوَّل كتاب سماوي أشار إلى هذه الحقيقة، وألحَّ على ضرورة النَّظر والتَّفكُّر والاعتبار بما حلَّ بالمجتمعات الإنسانية السَّابقة من هلاك ودمار حين خروجهم عن طاعة خالقهم ومعاندتهم لتلك السُّنن، وبما تحقَّق لها من فلاح ونجاة حين تعظيمها لربِّها، ومسايرتها لها، وانسجامها مع دعوات أنبيائها، ورسل الله إليها.

وبِهذا؛ فإنَّ القرآن الكريم كما يقول الشَّيخ محمد عبد العظيم الزُّرقاني: «قد أثبت أن للاجتماع نواميس ثابتة قبل أن يتخيلها أعلم علماء الأرض تخيلًا»، ويضيف: «وقد رأيتُ

(١) ينظر: التَّأصيل الإسلامي (٧٧-٧٨).

(٢) وهناك آيات أخرى عديدة تؤكِّد المعنى نفسه، ويمكن الرُّجوع في هذا إلى مقال الدكتور رفعت العوضي (المصطلح القرآني الاقتصادي: ٢٣٧-٣٦٢)، فقد أورد جملةً من السُّنن الاقتصادية الأخرى التي وردت في كتاب الله العزيز.

أنَّ تعيين تلك النَّواميس والتَّحسس ممّا خفي منها هو الشُّغل الشَّاغل اليوم لفلاسفة الاجتماع، وقد قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

ولم يكتف الكتاب العزيز بهذا وحده، ولكنه قرَّر أيضًا: أنَّ الجماعات كالآحاد، لها آجال لا تستطيع أن تتعداها، وهو ما هدى إليه علم الاجتماع بعد أن وجد أن وجوه الشَّبه بين الفرد والمجتمع واحدة، فقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف]، وقد تكرَّر مثل هذا في سور كثيرة من القرآن الكريم(١).

والقرآن الكريم لا يكتفي حين عرضه لأخبار الأقوام والأمم السَّابقة بذكر ما أصابهم من الهلاك والدَّمار، بل يعرض الأسباب التي أدَّت بهم إلى ذلك، مثل: العصيان وعدم تعظيمه تعالى من خلال التَّبرم عن عبادته وحده، وعدم الاستجابة لدعوات أنبيائه ورسله، والكفر بأنعمه، وارتكاب الفواحش، وظهور الظُّلم والبغي، وتفشي مظاهر التَّرف بينهم، إلى غير هذا.

ومن مجموع هذه الأحداث التي تكرَّرت وقائعها رغم اختلاف أشكالها، واختلاف الظروف الزَّمنية والمكانية التي وقعت فيها= يسجل القرآن الكريم وجودَ قانون أو سُنَّة كونية تحكم سير هذه المجتمعات، كما دلَّ على ذلك استنطاق جزئياتها؛ إذ يصرِّح القرآن أنَّ لله سُننًا في الأمم والجماعات، ويدعو إلى التَّفكير فيها والتَّدبُّر في مغزاها، واستكشاف دلالتها الاجتماعية، ولمس معانيها التاريخية، كما تسجل ذلك الآيات القرآنية(٢).

هذا على الرغم من كون هذه السنن أقل جلاءً وبروزا من تلك التي تحكم المجال الكوني والطبيعي.

والعلم بسنن الله تعالى الكونية العامة طريق إلى العلم بسنن الله الخاصة في المجتمع البشري، ومعرفة تقلبات الحياة به ومعرفة تطوره، ومعرفة عوامل هذا التطور، ومعرفة مدى

---

(١) هذا الكلام نقله ممَّا كتبه العلامة مدير مجلة الأزهر آنذاك تحت عنوان: (القرآن يضع أصول علم الاجتماع قبل العلم الحديث بأكثر من ألف سنة). ينظر: مناهل العرفان (٢/ ٣٨٧).

(٢) ينظر: منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية (٢٨٥-٢٩٩)، حيث أورد فيه أمثلة من السنن الاجتماعية التي صاغها القرآن الكريم، وتواترت بها النصوص الشرعية.

عظمة الخالق سبحانه من خلال سلطان سننه الإلهية الحاكمة. وهذا العلم بالسنن الإلهية هو الذي وضع المجتمع الإسلامي في مكان الصدارة من الحياة يوم أن كان العلم بأوسع معانيه، هو القائد لهذا المجتمع فطاف آفاق السموات والأرض نظارا باحثا يستشف الحقائق الكونية من وراء السحف يكشفها له القرآن ويهديه إلى أصولها[١].

وكمال الأمم في (الذِّروة) هو أن تجمع في (فقهها) وتطبيقاتها بين (السُّنن الكونية) الماضية على الكون وما فيه ومن فيه و(السُّنن التشريعية) الهادية الموضوعة أمام الاختيار الحُرِّ للإنسان، والتي على أساسها تكون الحياة الطيبة المطمئنة للفرد والجماعة على هذه الأرض، والسعادة الأبدية في الدَّار الآخرة. وبمقدار التَّطبيقات تحرز النتائج في كلٍّ من هذه وتلك، سلبًا وإيجابًا، ومقدارًا من القُوّة والضَّعف، وكمالًا ونقصًا[٢].

فهناك سمات مشتركة تشير إليها سُنن معيَّنة تجدها في الكون، كما تجدها في الطبيعة الإنسانية، كما تجدها في الحيوان والنَّبات، وترى أنَّ هناك تناغمًا وانسجامًا بين تلك السِّمات فالكلُّ من خلق الله العظيم سبحانه.

وإذا تدخل الإنسان فيها -وبحكم سنة الاختيار- واتبع السُّنن التشريعية التي سنَّها الله له انسجم معها وزادها نفعًا للإنسانية. أمَّا إذا غلبت عليه دواعي الشَّرِّ والعصيان والجحود لعظمته وعبوديته= أصاب العالم بالفساد، وهذا ما نجده اليوم ممَّا يسميه بعض الدَّارسين بـ (تلوث حضاري) أي: بسبب حضارة الإنسان المادية البعيدة عن السُّنن التَّشريعية والبعيدة عن منهج الله في الأرض، فنجد التَّلوث الخلقي والتَّلوث البيئي[٣].

ومخالفة سننه -تعالى- التي تحكم مسيرة الأفراد والأمم، كمخالفة سُننه التي تحكم مسيرة هذا الكون بكل جزئياته. فهناك وحدة أو تناسق بين النَّواميس التي تحكم الأرض وتحكم الكون كلّه، والنَّواميس التي تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته كي لا يقع التَّصادم بين هذه النَّواميس وتلك، وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة!

وإذن؛ فهي منزلة عظيمة، منزلة هذا الإنسان في نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة، وهو التكريم الذي شاءه له خالقه الكريم، وهذا التكريم إذا قابله الانسان بتعظيم الكريم، وخشيته واتباع هداياته وشريعته، فاز ونجا وإذا كان العكس فبئس المُنقلب، والعياد بالله.

---

(١) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن (٢٥).

(٢) على مشارف القرن الخامس عشر (١٦).

(٣) ينظر: مقدمة أصول العلوم الإنسانية (٢٤).

سنة الهلاك بسبب عصيانه سبحانه وعدم تعظيمه تعالى

من عظمة رحمته -سبحانه- بعباده أنَّه بيَّن لهم في كتابه العزيز سُبلَ الفلاح وسُننَ النَّجاة، كما بيَّن لهم سُبلَ الشيطان، وحذَّرهم من اتباع سُنن الفناء والهلاك.

وبيَّن- سبحانه- أنَّ من عظمة رحمته أنَّه (يعفو، ويمهل)، وأنَّ سُننه في التَّمكين -كما سُننه في الهلاك- لا تحدث فجأةً، أو بدون أسباب ومقدمات، ولكن يُرسل أنبياءَه بالحقِّ، ويمهل عبادَه، ويأخذهم وَفق سُنَّة التَّدرج ليصل بعد ذلك إلى تنفيذ أمره وحكمه بالنَّجاة، كما حصل لأتباع الأنبياء والمرسلين، ومن صار على هَديهم؛ والهلاك والخسران لأعداء أنبيائه ورسله ومن سار على دربهم إلى يوم القيامة.

والآيات القرآنية الكريمة تبيِّن في أكثر من موضع بأنَّ هلاك الأمم لا يأتي بغتةً أو صدفةً واتِّفاقا وبدون مقدمات، بل إنَّ هذا الهلاك مثلَ كلِّ شيء في هذا الوجود يأتي في أجله المحدد له سلفًا في علم الله، وواسع تقديره. وهو أجلٌ محدَّدٌ لا تملك أُمَّةٌ من الأمم أن تقدِّمه أو تؤخِّره: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [الحِجر]، وقال سبحانه كذلك: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ [هود]، وقال أيضا: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾ [الإسراء]، وقال أيضًا: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف].

فإذا ضلَّت الأُمَّة سبيل الحقِّ، وتنكبت عن صراطه -سبحانه-، ولم تُعظم وحيه ولا شرعه، ولم تتوجَّه إليه بالعبودية والألوهية، ولعب الباطلُ بأهوائها= وقعت في الشَّقاء لا محالة، وسلط الله عليها مَن يستذلُّها ويستأثر بشؤونها، ولا يؤخَّر لها العذابُ إلى يوم الحساب، فإذا تمادى بِها الغَيُّ وصل بها إلى الهلاك، ومحى أثرَها من الوجود، لهذا؛ علَّمنا اللهُ -تعالى- كيف ننظر في أحوال مَن سبقنا، ومَن بقيت آثارُهم بين أيدينا من الأمم لنعتبر، ونميِّز بين ما به تسعد الأقوامُ، وما به تشقى[1].

---

(١) تفسير المنار (١/ ٧٢).

وعدم تعظيم الله سبحانه، وإخلاص العبودية له وحده، وما ينتج عنه من شرك ومن انحراف عن مقتضيات الفطرة الإنسانية السَّليمة، أو شذوذ عن متطلبات الحياة المستقيمة، أو غرور وتكبر وتجبر نفسي، وما يتبعه من قهر للآخرين، وظلم لهم، واعتداء على حقوقهم، وفساد القلوب والعقائد= يورث فساد الأحوال العامة للأُمَّة؛ لأنَّ السُّلوك تابع للتَّصوُّر، فإذا فسد التَّصوُّر؛ فلا شكَّ أنَّ كلَّ سلوك ينبع منه يكون كذلك فاسدًا.

لذا؛ فإنَّ الإعراض عن تعظيم الله، وتعظيم شعائره ومنهجه، أو جحود بآيته، أو الإشراك به أو الكفر بأنعمه، والتكذيب بأنبيائه ورسله، كل هذه الأعمال تؤدِّي كما وردت بذلك آيات كثيرة من كتابه العزيز إلى الهلاك والدَّمار، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[الروم].

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ نحو القحط والجدب، وقِلَّة البركة في الزِّراعة والتِّجارة، وكثرة الحرائق والغرق، ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ أي: بسبب معاصيهم وذنوبهم، وأنَّ الله أفسد بعض أسباب دنياهم ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدُّنيا قبل الآخرة، والحكمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بمعنى: لكي يرجعوا عمَّا هم عليه، وحتى ينجوا من عذاب الآخرة، وهو العذاب الأكبر، ثمّ أمر الله الأُمم أن تسير في الأرض وتنظر لترى كيف أهلك الله أممًا كانت على الظُّلم وأذاقها سوء العاقبة بمعاصيهم، ودلَّ قوله تعالى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢]، على أنَّ الشِّرك لم يكن هو السَّبب الوحيد لتدمير القرى والأمم، بل هو سببٌ إلى جانب أسباب أخرى[(١)].

فعدم تعظيم الله -سبحانه- وتعظيم وحيه وشرعه، والإعراض عن دعوات الأنبياء والرسل، وما يتبع ذلك من أشكال الجحود والفساد والظلم والمعاصي، والسكوت عنها، وعدم السعي لمنعها، أو عدم مقابلتها بالاستنكار، كلّ هذا يؤدِّي إلى استحقاق ذلك الوعيد الإلهي الذي تجري وَفقه السُّنن الرَّبَّانية المدمرة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾[الأنعام].

وواضح من هذه الآيات أنَّ الهالكين إنَّما أهلكهم الله بذنوبهم، وكثرة معاصيهم التي اقترفوها. وفي هذا الإخبار تقرير حقيقة ثابتة وسُنَّة مطَّردة: أنَّ الذُّنوب تُهلك أصحابها، وأنَّ

(١) ينظر: الكشاف (سورة الروم: ٤١-٤٢).

الله تعالى هو الذي يهلك المذنبين بذنوبهم، وأنَّ هذه سُنَّة ماضية ولو لم يرها أحدٌ في عمره القصير، ولكنها سُنَّة ثابتة تخضع لها الأمم حين تفشو فيها الذُّنوب، فإنّها تهلك إمّا بقارعة من الله تعالى كما كان يحدث في هلاك الأمم السَّابقة، وإمّا بالانحلال البطيء الطبيعي الذي يسري في كيان الأُمَّة وهي توغل في متاهات الذُّنوب، وتحسب أنّها في أمان من الهلاك.

- **أنواع المفاسد التي يتجلى فيها الانحراف عن تعظيم الله سبحانه وحده والتي يحصل بسببها الهلاك:**

١- عدم تعظيم الله من خلال الجحود بآياته تعالى وعصيان رسله.

٢- عدم تعظيم الله، وتعظيم بدل ذلك مَن لا يملك القدرة، ولا يستحق التعظيم، مثل اتّباع أمر كلّ جبار عنيد، وإطاعة أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، كفعل عاد وثمود.

٣- عدم تعظيم الله بالإعراض عمَّا أنزله في كتبه، والفرح بالعلم المادي، كالذين حكى الله عنهم في آخر سورة (غافر: ٨٢-٨٥).

٤- عدم تعظيم الله عزَّ وجلَّ، والغفلة عن بأسه تعالى، والاعتزاز بالقوة المادية والثروة المالية، كفعل فرعون وقارون.

٥- عدم تعظيم شرع الله عزَّ وجلَّ، وادِّعاء العظمة على خلقه من الفقراء والمستضعفين، وظلمهم والبغي عليهم بغير الحقِّ، مثل فعل مدين قوم شعيب.

٦- عدم تعظيم حرمات الله عزَّ وجلَّ، واقتراف الفواحش، واتباع الشهوات كفعل قوم لوط.

٧- عدم تعظيم وحيِّ الله، وعدم اتباع هداياته -عزَّ وجلَّ- في شرعه وأنبيائه ومقابلة أنعمه بالجحود وأنواع المنكرات، كما فعل بنو إسرائيل: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[المائدة: ٧٩].

٨- عدم تعظيم الله بالكفر بأنعم الله، وعدم تعظيمه بشكر نعمه، بل استخدامها في معاصي الله، قال تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[النحل: ١١٢].

والقرآن الكريم حينما يعرض لنا أسباب هذا العصيان والطغيان والكفر بأنعم الله سبحانه، وعدم تعظيمه= يعرضها للاعتبار، ولذلك لا يهتم كثيرًا بعرض بعض التفاصيل والجزئيات، كما لا يتوقَّف لتتبع الأحداث الجانبية العابرة والتي لا ثبات لها في حياة الأفراد

والأمم، وإنّما يطرح مبادئ كلية وسننًا شاملة وثابتة ترتبط بجوهر الإنسان، وتصدر من كيانه. ولنا نحن أن نتصوَّر ما يمكن أن يتمخَّض عن هذه المسائل الكلية (أي: السنن) من فروع وجزئيات.

ومن سنن الله تعالى في هلاك الأمم أن عظمته سبحانه وحكمته تعالى اقتضت أن لا يُنزل الهلاك بأُمَّة إلَّا بعد أن يرسل إليها رسلًا ينذرونها إلزامًا للحُجّة، وهذا من كمال عدل الله الذي حرَّم على نفسه الظُّلم سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ [الشعراء]، وقال سبحانه كذلك: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾[التوبة]، وفي هذه الآية دعوة للمنافقين والكافرين الى الاعتبار بحال الذين سبقوهم من قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم شعيب وقوم لوط، جاءتهم رسل الله بالحُجج البيِّنات من عند الله فكذَّبوا وكفروا، فأخذ الله كلًّا بذنبه، وأهلكهم جميعا!! وما ظلمهم الله بهذا، ولكنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وتمردهم على الله، واستحقاقهم العذاب وحدهم، فهم الذين يظلمون أنفسهم(١).

والمراد من ضرب هذا المثل للكافرين برسالة محمد ﷺ من المجاهرين والمنافقين: أنَّ سُنَّة الله في عباده واحدة لا ظلم فيها ولا محاباة، فلا بدَّ أن يحلَّ بهم من العذاب ما حلَّ بأمثالهم من أقوام الرُّسل إن لم يتوبوا، كما قال في (سورة القمر): ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾.

وأمَّا قوم محمَّد ﷺ؛ فقد أهلك الله -تعالى- أكابر الجاحدين المعاندين منهم في أوَّل غزوة هاجموه فيها وهي غزوة بدر، ثمّ خذل الله مَن بعدهم في سائر الغزوات، وأخرج الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من ديارهم، وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار، ثمّ صار النَّاس يدخلون في دين الله أفواجًا(٢).

---

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم (٢٥٠).

(٢) تفسير المنار (١٠/ ٥٤٠).

بعض سنن هلاك الأمم والأقوام لعدم تعظيمهم لله سبحانه في وحيه وشرعه وأحكامه

كما أنَّ بناء الأمم، وتمكنها، وسلامة الأفراد والجماعات، وأمنهم= يكون باتباع سنن ربَّانية معيَّنة تؤدِّي كلَّها إلى توحيد العبودية لله وحده، وخشيته وطاعته وتعظيمه، فكذلك الهلاك والفناء والخسران إنَّما تحصل كلّ هذه الآفات بالانحراف عن صراطه المُستقيم، وتتحقَّق باتِّباع طريق الشَّيطان؛ لكنَّ الحقَّ -سبحانه- من عظمته سبحانه في عفوه ولطفه ورحمته أنَّه بَيَّن في كتابه العزيز أنَّه قبل أن يُهلك الأقوام الذين تنكبوا صراطه، وتعظيمَه سبحانه في شرائعه وأنبيائه وشعائره، قبل أن يعذبهم ويستأصلهم= يُخضعهم -تعالى- لسُنَّة (الإمهال، والإملاء[1]؛ الاستدراج). والقرآن الكريم بيَّن هذه السُّنن من خلال عدَّة آيات، كما عرض نماذج عديدة لتلك الأمم التي جرت عليها هذه السُّنن؛ سُنَّة إمهال الأمم الظَّالمة والجاحدة لأنعم الله، وتعظيم مَن لا يملك ولا ينفع.

أ- سنة الإمهال:

تعني أنَّ الله -سبحانه- جرت سُنَّته لحكمة يعلمها تعالى، أن يمُهل الظَّالمين والمعرضين والجاحدين لأنعمه تعالى، فلا يعجل لهم العذاب، ويُملي لهم مُدَّة من الزَّمن، وهو سبحانه يمهلهم، ويملي لهم، ولكنه لا يهملهم، ولا يتركهم دون جزاء وعقاب، فإذا جاء أجلهم لحقهم وعيدُ الله لهم، ونالهم عقابُه الذي لا يملك أحدٌ ردَّه، أو تفويته.

وهذا الإملاء للكافرين ليس عنايةً من الله بهم، وإنَّما هو جريٌ على سُنَّته في الخلق، وهي أن يكون ما يصيب الإنسان من خير وشرٍّ هو ثمرة عمله. ومن مقتضى هذه السُّنَّة العادلة أن

---

(١) الإملاء: الإمهال والمدُّ في العمر، ومنه: ملاوة الدهر: المُدَّة الطويلة، قال الواحديُّ: واشتقاقه من الملوة، وهي المُدَّة من الزَّمان، قال الأصمعيُّ: يقال: أملى عليه الزَّمان، أي: طال، وأملى له، أي: طوَّل له وأمهله. قال أبو عبيدة: ومنه الملأ، ومنه: الملا: الأرض الواسعة، والملوان: اللَّيل والنَّهار. وقولهم: ملاك الله بنعمه، أي: منحكها عمرًا طويلًا. وقيل: الملوان: تَكَرُّر اللَّيل والنَّهار وامتدادهما، بدليل إضافتهما إليهما، كما في قول الشاعر:

نهار وليل دائم ملواهما ... على كل حال المرء يختلفان

فلو كانا اللَّيل والنَّهار لما أضيفا إليهما؛ إذ الشَّيء لا يضاف إلى نفسه. والإملاء: الإمهال والتَّأخير. انظر: زاد المسير في علم التفسير (٣/ ٢٢٦).

يكون الإملاء للكافر على غروره، وسببًا لاسترساله في فجوره، فيوقعه ذلك في الإثم الذي يترتب عليه العذاب المهين، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[آل عمران]، ونملي لهم، أي: نُطيل لهم في العمر(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ بدلٌ من المفعول، أوَلا يحسبنَّ هؤلاء الذين كفروا أنَّ إملاءنا لهم خيرٌ لأنفسهم، فإنَّ الخير ليس في الإمهال، وإرخاء العنان للإنسان ليعمل بحسب استعداده ما يشاء، فإنَّ هذه سُنَّة الله في جميع البشر، يعملون باختيارهم ما يشاؤون في دائرة الإمكان، وإنَّما يكون الخير للإنسان في الإملاء وطول الأجل، مع التمكن من العمل، إذا كان يزداد فيه عملًا صالحًا ينتفع به في نفسه بارتقائها في الأخلاق العالية، والصِّفات الفاضلة، وينفع به النَّاس في تهذيب أنفسهم، وتحسين معيشتهم، وهؤلاء الكافرون من المنافقين والمشركين وأمثالهم لا يزدادون بجهلهم وسوء اختيارهم إلَّا إثمًا يضرُّهم في أنفسهم بالتَّمادي في مكابرة الحقِّ، والاسترسال في الفسق، وتأييد سلطان الشَّرِّ في الخلق، فاللَّام في قوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ هي التي يسمُّونها لام العاقبة والصَّيرورة، أي: لتكون عاقبتهم بحسب السُّنَّة العامَّة في الخلق ازديادَ الإثم(٢).

ب- سنة الاستدراج:

وهذه السُّنَّة تعني أنَّ الله تعالى يغمر أهلَ الباطل بالنِّعم المادية والدُّنيوية حتَّى ينخدعوا ويصابوا بالغرور، ويُصِرُّوا أكثرَ على طريقهم، ويتصلبوا ويزدادوا في الكفر والظلم والعصيان، وعندئذ يصبحون مستحقين لعذاب أكبر وعقاب أعظم.

ومن سُنَّته -تعالى- أنه قد يمهل أقوامًا ويرجئ عذابهم إلى وقت ما، ويمدُّهم مع ذلك بالأموال والبنين، ويوسِّع عليهم في حياتهم، ويُسهِّل لهم الصِّعاب، ويمهد لهم سُبلَ المعاش، فيظنّ الجُهَّال منهم بسُنَّة الله أنّهم على خير، وأنّهم ناجون غير معاقبين، وأنَّ حالتهم تلك لا توجب لهم نقمةً ولا يستحقون بها بأسًا، وبالحقيقة أنَّه -تعالى- يستدرجهم ويملي لهم من حيثُ لا يشعرون، حتَّى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر(٣).

(١) انظر للمزيد: زاد المسير في علم التفسير (٢٢٥-٢٢٦).
(٢) المنار (٤/ ٢٥٠).
(٣) أسباب هلاك الأمم (٣٠).

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾[الأعراف]، واستدراج القوم هو: الأخذ لهم بالتَّدريج شيئًا فشيئًا ومنزلةً بعد منزلة، وذلك يكون بإدرار النِّعم عليهم وإنسائهم شكرها، فينهمكون في الغواية، ويتنكَّبون طرق الهداية، ويظنون أنّ ما أعطوه جاءهم من جهة قربهم من الله تعالى، ولِما لهم عنده من مكانة ومنزلة، وهكذا حتَّى يأخذهم بغتة، فإذا أخذهم لم يفلتهم[1].

وقال ابن قتيبة: هو أن يذيقهم من بأسه قليلًا قليلًا من حيثُ لا يعلمون، ويباغتهم ولا يجاهرهم، وقال الأزهريُّ: سنأخذهم قليلًا قليلًا من حيثُ لا يحتسبون، وذلك؛ أنَّ الله تعالى يفتح عليهم من النِّعم ما يُغبطهم به ويركنون إليه، ثمّ يأخذهم على غِرَّتهم أغفلَ ما يكونون، قال الضَّحاك: كلَّما جدَّدوا لنا معصيةً جدَّدنا لهم نعمةً.

وفي قوله: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قولان؛ أحدهما: من حيثُ لا يعلمون بالاستدراج، والثَّاني بالهلكة[2].

هناك آيات عديدة تتضمن الإشارة إلى هذه السُّنَّة، سُنَّة الإمهال وسُنَّة الاستدراج، حيثُ وردت في سورة الأنعام (الآيتين: ٤٢-٤٣)، وفي سورة الأعراف (الآيتين ٩٤-٩٥)، وكذلك في سورة الرعد (الآية ٣٢)، وسورة القلم (الآيتين ٤٤-٤٥) وغيرها من الآيات، ولا شكَّ أنَّ الوقوف على نموذج من هذه الآيات، وتتبع بعض أقوال المفسرين فيها يمكن أن يبيِّن لنا أكثر معاني هذه السُّنَّة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾[الأنعام]، قال ابن كثير: وهذا استدراجٌ منه -تعالى- وإملاءٌ لهم، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ﴾ من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي: على غفلة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[الأنعام] أي: آيسون من كلِّ خير، وأورد الحديثَ الذي رواه الإمام أحمد: عن عقبة بن عامر، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾[الأنعام: ٤٤] الآية[3].

---

(١) المرجع السَّابق (٣٠).

(٢) زاد المسير في علم التفسير (٢٢٥-٢٢٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٢٣).

وإجمالًا؛ فإنَّ القوم المستدرجين بدل أن يقابلوا أنعم الله عليهم بما يستحقّه واهبُ هذه النِّعم من الطَّاعة والشُّكر والاستقامة على منهجه وتعظيمه -سبحانه- وحده، فإنّهم بدل هذا يعلنون عصيانهم وإعراضهم، فتزيد آثامُهم، ويحصل هلاكُهم بذلك.

التَّدبُّر والاعتبار بـ (سنن الله) في الآفاق والأنفس سبيلٌ قويٌّ لحصول خشيته وتعظيمه سبحانه

تعدَّدت الآيات القرآنية التي تُرشدنا إلى قراءة آيات الكون وإدراك سننه المحكمة التي تتجلَّى في كلِّ صغيرة أو كبيرة فيه، فتارة تحثنا الآيات القرآنية على التَّدبُّر وإعمال الفكر التَّأملي الشَّامل في الكون كلّه، لإدراك بعض السُّنن العامّة فيه.

وتارة أخرى تتوقف بنا الآيات القرآنية على تفاصيل وجزئيات جوانب هذا الكون الرَّحب لاستخلاص بعض السُّنن الجزئية فيه.

وكثيرٌ من هذه الآيات تختم بالدَّعوة إلى النَّظر والتَّفكُّر والتَّدبُّر والاعتبار؛ لأنَّه بقدر نظرنا وتفكُّرنا وتدبُّرنا ووقوفنا على دِقَّة هذه السُّنن وانتظامها في كلّ الموجودات يكون إدراكنا ويقيننا بقدرة وعظمة هذا الصَّانع الحكيم(١).

كما ورد التَّعقيب على عِدَّة آيات أخرى تتضمن الإشارة إلى بعض أوجه هذا النِّظام والاتِّساق المشاهد بين أجزاء هذا الكون بقوله تعالى بأنّها ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ إدراك كثير من هذه السُّنن التي تسري على عوالم الأفلاك والجماد والنَّبات والحيوان والإنسان لا يكون إلَّا لمن يعقلون، ويتفكَّرون من أولي الألباب وذوي النُّهى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤﴾[الروم]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٥﴾[الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ

---

(١) ينظر مثلًا: ما أورده الشيخ محمَّد جمال الدين القاسمي في كتابه (دلائل التَّوحيد): الدَّليل الثالث عشر: نظام الأكوان وما فيها من الأحكام والإتقان (٥١).

﴿٤﴾﴾[الرعد]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾[النحل].

قال صاحب (تفسير المنار) في بيان بعض أسرار قوله تعالى: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الوارد في (الآية ١٦٤) من سورة البقرة: ﴿وَآيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لأنّهم هم الذين ينظرون في أسبابها، ويدركون حكمها وأسرارها ويميزون بين منافعها ومضارّها، ويستدلّون بما فيها من الإتقان والإحكام، والسُّنن التي قام بها النِّظام= على قدرة مبدعها وحكمته، وفضله ورحمته، وعلى استحقاقه للعبادة دون غيره من برِّيته، وبقدر ارتقاء العقل في العلم والعرفان يكمل التَّوحيد في الإيمان، وإنَّما يشرك بالله أقلُّ النَّاس عقلًا وأكثرهم جهلًا[1].

كما جعل سبحانه الكون كله في آيات أخرى كثيرة مجالا للتفكر، حيث وردت هذه الكلمة (تتفكرون، ويتفكرون) في القرآن الكريم تسعَ عشرةَ مرَّة، ووردت بصيغة الماضي (فكر) مرَّة واحدة، ولم ترد هذه الكلمة إلَّا بهذه الصِّيغ في عشرين آية من القرآن الكريم، ولم ترد الكلمة اسمًا أو مصدرًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[آل عمران]، ويقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾[النحل].

وآيات القرآن الكريم في هذا الصِّدد المتعلِّقة بالسُّنن وبغيرها آيات ميسرة للنَّظر الفطري البسيط، والنَّظر المتأمل المتعمق؛ لأنّها أرسلت للنَّاس كافّة وفي كلِّ زمان، فالسَّموات –مثلا– آيات رائعة معجزة عند الأُمِّيِّ وعند عالم الفلك المتخصص على السَّواء، كلّ منهما بقدر إدراكه. والإبل في خلقها آيات تبدو للبدوي وتخاطب فطرته السَّليمة وما زالت في الوقت نفسه بالذَّات تتحدى بحوث العلماء في القرن العشرين، وهكذا في عشرات من الأمثلة، وهذا سِرّ من أسرار بلاغة القرآن.

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٦٣).

قال جلَّ شأنه: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[الأنعام]، وقال كذلك: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾[الحِجر]، فالله -سبحانه- الذي قدَّر هذا ووضع لكلِّ شيءٍ في هذا الكون سُننًا ونواميسَ لا تملك المخلوقات غير الخضوع لها، ولا تقدر على نقضها أو خرقها متى شاءت ذلك. وهو وحده -تعالى- القادر على نقضها أو خرقها متى اقتضت حكمته سبحانه ذلك، ويوقف سُنَّة تعاقب اللَّيل والنَّهار، وينقض تلازمهما، فيجعلهما سرمدًا كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾[القصص].

وممَّا يلاحظ بوضوح في منهج التَّربية القرآنية على معرفة الله سبحانه وتوحيده وتعظيمه والتَّوجّه إليه وحده، كثرة توجيه الإدراك البشري إلى ما في الكون، وما في الأنفس، من أمارات وآيات دالّة على قدرته سبحانه وعظيم سلطانه، وتوجيه هذا الإدراك إلى مصاحبة صنعة الله في الأنفس والآفاق، ذلك أنَّ هذه المصاحبة، بالإضافة إلى أنّها تنبِّه الإدراك البشري إلى معرفة الصَّانع من صنعته، وإجلاله بإدراك عظمته من عظمة صنعه، وحبّه بإدراك عظمة أنعمه، فهي في الوقت ذاته تطبع الإدراك الإنساني بخصائص تلك الصّنعة: من دِقّة وتناسق وانتظام، لا خلل فيه ولا تصادم ولا تفاوت، كما تطبعه بموحياتها كذلك من هدايات وحقائق ومقررات. وليس بالقليل مثلًا أن ينطبع في حسِّ الإنسان وشعوره من متابعة التغير المستمر في أحوال هذا الكون، وفي أحوال البشر، وفي أحوال النّفس= أنَّ الدوام لله وحده، الذي يغيّر ولا يتغيّر. وأنَّ كلّ شيء حائل أو زائل، إلَّا الحيّ الذي لا يموت، وليس بـ(القليل مثلًا أن ينطبع في حسِّ الإنسان وشعوره من ملاحظة ثبات السُّنن التي تحكم ذلك التَّغيّر، وثبات النَّاموس الذي يتمّ به التَّبدُّل والتَّحوُّر= أنَّ الأمور لا تمضي جُزافا، وأنَّ الحياة لم توجد سدى، وأنَّ الإنسان غير متروك. وإنَّما هو التَّدبير والتَّقدير، والابتلاء والجزاء والعدل الصارم الدَّقيق في تقدير المصير) ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾[الأحزاب].

وكلّ مَن تأمَّل أو تدبَّر هذه السُّنن في الآفاق أو في الأنفس، ظهر له بجلاء واضح جوانب من عظمة الله سبحانه؛ لكن قد يدرك النَّاس في هذا العصر بعضًا من جوانب هذه الآيات والسُّنن، وقد لا يدركون منها شيئًا إلَّا بعد أزمان، بفعل تقدم العلم وتعمق الاكتشافات، غير

أنَّ عدم إدراكها اليوم لا يعني عدم وجودها، لأنَّ الإعجازَ العلميَ ما فتئ يكشف عن جوانب منها كانت إلى الأمس القريب غير معلومة.

والمدخل الأساسي لتحصيل وتحقيق تعظيم الله في النُّفوس هو الجمع بين القراءتين: قراءة لآيات القرآن وتدبُّرها، وأخرى لآيات الكون والتَّفكُّر فيها، فكلٌّ منهما يشير إلى السُّنن والقوانين المبثوثة في الوجود وحركته، (وبقدر ما تتسع المعرفة للاثنين معًا، بقدر ما تتكوَّن لدينا القدرة على الجمع بين القراءتين واكتشاف التَّداخل المنهجي بين الوحي والكون (منهجية القرآن هي منهجية الوجود). ممّا تظهر معه عظمة الخالق سبحانه وإعجازه المُبهر في كلِّ آياته في كتابه المُنزَّل المقروء، وفي كتابه الحسي المسطور المُشاهد وذلك في كُّل ما يحيط بالإنسان.

ومن نقاط الالتقاء بين (النِّظام القرآني) و(النِّظام الكوني): وضعُ كلِّ شيء في محلّه الطبيعي المناسب له، وأنَّ أي تلاعب ولو كان يسيرًا، يسبِّب خللًا في النِّظام، وفسادًا فيه، ففي النِّظام الكوني نجد أنَّ كلَّ ذرَّة من ذرَّات الوجود، وُجِدَت لحكمةٍ، ووضعت في مكانها الخاصِّ بها لحكمةٍ، بحيثُ لو حدث أيَّ تغيير في ذلك؛ لاخْتلَّ جانبٌ من جوانب الحياة. وفي النِّظام القرآني نجد أنَّ كلَّ كلمة في القرآن وُضِعت في محلِّها الطبيعي، بحيثُ لا يمكن أن تسدَّ مكانَها أيُّ كلمةٍ أخرى، ولا أن تعطي الأبعاد نفسها والظّلال التي تعطيها تلك الكلمة[١].

وفي التّركيز على هذا التّرابط بين القراءتين: الهدايات المبثوثة في كتابه تعالى، والهدايات الدَّالَّة عليه في كلِّ الموجودات، وكما عبَّر عن ذلك حُجّة الاسلام الغزالي، فكلٌّ «ما في الوجود ممَّا سوى الله تعالى فهو فعلُ الله وخلقه، وكلُّ ذرَّة من الذَّرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمةُ الله وقدرته وجلاله وعظمته. وإحصاء ذلك غير ممكن؛ لأنَّه لو كان البحر مدادًا لنفد البحر قبل أن ينفد عُشر عُشَيره»[٢].

(ومهمة السُّنَّة الشَّرعية أو الإسلام أن تقيم الانسجام، بين السُّنن الكونية والسُّنن الاجتماعية في حياة الإنسان، فيتآلف جانبه الإرادي مع جانبه اللاإرادي، ويخضعا معًا لسُنَّة الله، أو بتعبير علماء الأصول: «أن يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبدٌ لله اضطرارًا»[٣].

---

(١) مناهج التربية الإسلامية (٣٣٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٧١) .

(٣) التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية (٧٥).

لهذا؛ كان على الإنسان أن يلائم الجانب الإرادي من حياته مع سُنَّة الكون كلِّه لتهدأ وتنتظم وتهنأ وتستريح.

وحين يوجِّه القرآن الكريم الإنسان إلى استنباط هذه السُّنن عن طريق النَّظر والتَّدبُّر والاعتبار بسنن الله الجارية على عباده، أو تلك المُتجلية في الآيات الكونية وظواهرها المتشابكة، وعناصرها المتناسقة في تركيبها وفي حركتها وسكونها= لا يقصد إلى مجرد تربية الإنسان والأُمَّة على تحصيل المعرفة، أو العلم الذي يكشف بعض أسرار ذلك التَّقدير الإلـهي العجيب، بل إنَّ الغرض من ذلك ما يبعثه النَّظر والتَّدبُّر والتَّفكُّر في النُّفوس من الخشية والتَّقدير والمحبة والتَّعظيم للخالق سبحانه، الواحد الأحد الذي لا يؤوده حفظ أيّ شيء من مخلوقاته، وهو العليُّ العظيم سبحانه.

النَّظر في سُنن الله في الآفاق والأنفس يُربِّي الإنسانَ على ربط الكائنات بمُكوِّنها وخالقها ومُدبِّرها العليم الحكيم، وبهذا تتحقَّق جملة من المقاصد المُهمة التي يأتي في مقدمتها: تعزيزُ خشية الله في النُّفوس، وتربيتها على التَّوجُّه إليه وحده بالعبادة، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾[فُصِّلَت: ٥٣].

فسبحان الذي خلق النُّجوم والكواكب والمجرات، وحدَّد لها مدار جريانها، ورسم لها مساراتها وحركتها وَفق سُنن ونواميس لا تحيد عنها، ونظام بديع لا تملك الفكاك من الخضوع لمقاييسه وتوازناته.

(وآيات الكون في خلق الله كآيات القرآن في هدايتهم منهجًا ومسيرةً ومقصدًا، وبدون فهم القرآن فهمًا منهجيًّا واعيًا في إطار وحدته وبنياته الكاملة فهما يتَّصل وينعكس على فهمنا المنهجي المعاصر للظَّواهر الكونية وسُنن حركتها في وحدتها البنائية لا يمكن التَّفاعل مع السَّاحة الحضارية)[1].

والقرآن الكريم رحمة بهذا الإنسان لا يترك هذا الكائن يتخبط وحده، ومن خلال الإرادة الكامنة فيه، بدون توجيه وإرشاد إلى (السُّنن، والمفاتيح) والهدايات التي تقود دائمًا إلى النَّصر والفلاح بقصد اتباعها، وكذا إلى تلك التي تقود إلى الهلاك والشَّقاء بقصد اجتنابها؛ (لأنَّ الله -سبحانه- لم يترك هذا الإنسان هملًا بدون دليل عملي، وإنَّما هداه إلى

(١) مدخل القيم (٢٤٠).

مفاتيح الهداية، وبسط له مساحات كبيرة من تاريخ البشرية الطَّويل، وقدَّم له نماذج متعدِّدة تستوعب مسيرة الحياة بجوانبها وأنشطتها المختلفة، لتكون دليلَه إلى الفعل الصَّائب، ومنهجه إلى العبرة والوقاية من كلِّ الإصابات وانتقال علل الأمم السَّابقة)[1].

وإذا لم يسلم الإنسان نفسَه لسُنَّة الله، ولم يُدرك الحقيقة من وجوده وابتلائه في هذا الوجود= كان مصيره الضَّلال والشَّقاء؛ لأنَّه صار بذلك شيئًا شاذًا ممسوخًا، فيتنكس ويتخبط، فالحقُّ هو قانون الكون، مَن سار عليه انتظم وفاز، ومن خرج عنه تفتت وانهار وهلك، ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، والحقُّ هو قانون الإنسان إذا أسلم له اهتدى وسعد، وإذا انحرف عنه شقي وتعس تمامًا كما يتفتت الكوكب حين يخرج عن مداره ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه].

وحتى لا تُفهم السُّنن الإلهية كما تفهم (القوانين الطَّبيعية من قبل الفكر العلماني، لا بدَّ من النَّظر إليها نظرة شاملة يتكامل فيها الجانب الرَّبَّاني الغَيبي مع مراعاة ما أودعه الله من طبائع وخصائص في مخلوقاته، وفي هذا تجاوز للنَّظرة المادية -السَّائدة في هذا العصر- التي طغت فيها الماديات على العقول في النَّظر إلى كلِّ الموجودات، والتي تحصر نظرها إلى الوجود في دائرة المحسوسات فقط، وتدعي تحكم القوانين الطَّبيعية المادية في كلِّ شيء؛ وتُلغي الجانب الغيبي الإلهي الكامن في كلِّ صغيرة وكبيرة من حركات الكائنات وسكناتها، و تعتبر كلّ الموجودات إنَّما تخضع في حركاتها وسكناتها لما تُسميه بالحتمية المادية، وقوانين التَّطور الطَّبيعي وغيرها، من التَّصورات المادية التي تنظر إلى هذا الوجود على أنَّه مجرد آلة ميكانيكية صَمَّاء لا تعكس أية معاني الجلال والجمال والعظمة الإلهية الكامنة في كلِّ شيءٍ فيه. وقد نعت آياتٌ كثيرةٌ على المشركين من قبل عدم تأمّلهم فيما تشاهده أعينهم من عجائب صنع الله، وعدم إدراكهم لعظمته سبحانه من خلال التَّأمل في بديع صُنعه.

لذا؛ لا بدَّ من التّركيز على هذا الجانب الغَيبي الرَّبَّاني المحيط بجريان السُّنن وسريانها، وبيان أنَّ قدرته وعظمته -جلَّ وعلا- وإن جعل لكلّ الكائنات طبائعها الخاصّة، وأحكمها بسُننه التي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر، فإنَّ إرادته -سبحانه- وعظمته مُحيطة بكلِّ هذا، ويخرق

(١) ينظر: تقديم عمر عبيد حَسنة لكتاب (المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب)، سلسة كتاب الأُمَّة (١٣).

السُّنن متى شاء ذلك؛ لأنَّ عظمة قدرته لا تخضع لنظام الارتباط بين الأسباب ومسبباتها، وإنَّما إذا أراد أمرًا فإنَّما يقول له: كن فيكن، وهو الفعَّال لما يريد)[1].

لهذا؛ فإنَّ من آيات الله تعالى في هذا الوجود ما يجري وَفق سنن مطَّردة، ومنها: ما يجري على خلاف ما اعتداده البشر من السُّنن المعتادة لديهم؛ لأنَّ آيات الله تعالى في خلقه نوعان:

النَّوع الأوَّل: الآيات الجارية على سننه -تعالى- في نظام الخلق والتكوين وهي أكثرها وأظهرها للعيان.

النَّوع الثَّاني: الآيات الجارية على خلاف السُّنن المعروفة للبشر، وهي أقلُّها، وربما كانت أدلَّها عند أكثر النَّاس على عظمته -عزَّ وجلَّ- التي تحكم جريان السُّنن، ولا تحكمها السُّنن، وكون قدرته ومشيئته غير مقيدتين بسنن الخلق التي قام بها نظام الكون[2]، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٨٠﴾[المؤمنون].

ومن الآيات الجارية على خلاف السُّنن والتي أوردها الحقُّ -سبحانه- في كتابه: تلك المعجزات التي أيَّد بها الحقُّ -سبحانه- أنبياءه ورسله الكرام: مثل معجزات نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وداود وسليمان وموسى وعيسى، ومعجزات خاتم الأنبياء والرُّسل محمد ﷺ.

وهذه هي خلاصة ما ينطوي عليه الدِّين الحقُّ الذي ألزم الله به عباده منذ أن خلق آدم عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إلى أن بعث خاتم الأنبياء محمَّدًا ﷺ (فقد جعل اللهُ نواميسَ هذا الكون موافقة لوجود هذا الإنسان تساعده حين يتعرَّف إليها على بصيرته وتيسر حياته، وفي ظلّ هذا التَّصوَّر الإسلامي يعيش الإنسان في كون مأنوس صديق، وفي رعاية قوّة حكيمة مدبّرة عظيمة يعيش مطمئن القلب، مشروح النَّفس، ثابت الخطو ينهض بالخلافة عن الله في الأرض في اطمئنان الواثق بأنَّه مُعانٌ على الخلافة؛ ويتعامل مع الكون بروح المودّة والصداقة، ويشكر الله كلما اهتدى إلى سر من أسرار الوجود، وكلما تعرف إلى قانون من قوانينه التي تعينه في خلافته وتيسر له قدرا جديدا من الرقي والراحة والمتاع.

---

(١) وقد أدَّى عدم إدراك هذه الحقيقة المرتبطة بسُنن الله في الآفاق والأنفس ببعض المفكرين المحدثين إلى ما قد يُفهم منه إنكار بعض الخوارق الواردة في كتاب الله.
ينظر إلى نماذج من هؤلاء عند د. محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون (٢/ ٥٣٣).

(٢) المنار (١١/ ٢٢٣).

خاتمة

وفي الأخير: أقول: هذا هو غاية ما فتح الله به عليَّ، وهداني إليه، ولا يسعني إلَّا أن أُقِرَّ بعجزي وتقصيري في جوانب منه، وأسأل الله العلي القدير أن أكون قد وُفِّقتُ وأصبت في بيان أهمية هذا الموضوع، فإن يكن ذلك حقًّا فبفضل الله وهدايته، وحسن توفيقه وتسديده.

لا يسعني في الختام إلَّا أن أردِّد مع الشَّاعر لبيد بن ربيعة بن مالك تلك الحقيقة الفطرية التي أحسن التَّعبير عنها بقوله:

فيا عَجَبًا كَيفَ يُعصى الإِلَهُ ... أم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ

وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِدُ

وَلِلَّهِ في كُلِّ تَحريكَةٍ ... وَتَسكينَةٍ أَبَدًا شاهِدُ

وما توفيقي إلَّا بالله، عليه توكلتُ، وإليه أنيب،،

المصادر والمراجع

١- إبراهيم الوزير، على مشارف القرن الخامس عشر: دراسة للسنن الالهية والمسلم المعاصر، دار الشروق القاهرة طبعة ١ـ سنة ١٣٩٩ه/ ١٩٧٧ م.

٢- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ت. طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، طبعة ١٣٩٩هـ.

٣- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير

٤- ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ط المكتب السعودي بالمغرب، مكتبة: دار المعارف الرباط، المغرب.

٥- ابن تيمية، جامع الرسائل الكبرى، المجموعة الأولى تحقيق: محمد رشاد سالم.

٦- ابن رجب، استنشاق نسيم الأنس في رياض القدس، المكتب الإسلامي –بيروت.

٧- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، الطبعة١ سنة،١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

٨- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.

٩- أحمد على إمام، المستقبل للإسلام (سلسلة كتاب الأمة تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية قطر). عدد ٤٦ ربيع الأول ١٤١٦هـ-السنة الخامسة عشر.

١٠- إسماعيل بن محمد بن الفضل، الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي عمير – محمد بن محمود أبو رحيم في مُجلدين.

١١- أمزيان، محمد، منهج البحث الاجتماعى بين الوضعية والمعيارية، نشر: المعهد العالمى للفكر الإسلامى عام ١٩٩١م، ضمن سلسلة الرسائل الجامعية.

١٢- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفى، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى)، الطبعة ١، ١٤٢٢هـ.

١٣- برغوث عبد العزيز، ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية، مجلة إسلامية، المعرفة عدد ٤٩ -السنة ١٣، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

١٤- البيهقى، شعب الإيمان، ت: عبد العلى عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط. ١، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

١٥- التليدي، عبد الله، أسباب هلاك الأمم، دار البشائر الإسلامية، بيروت لبنان، ط٢، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

١٦- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمى الرازي الملقب بفخر الدين، مفاتيح الغيب التفسير الكبير للرازي. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣.

١٧- الرازي، مختار الصحاح،

١٨- رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم ـ تفسير المنار، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.

١٩- رفعت العوضي، المصطلح القرآني الاقتصادي، ندوة الدراسة المصطلحية والعلوم الإسلامية، ج٢، إصدار جامعة سيدي محمد بن عبد الله، مطبعة المعارف الجديدة، البيضاء.

٢٠- الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن. مطبعة دار الفكر بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ١٩٨٨م.

٢١- الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣.

٢٢- زينب عطية محمد، مقدمة أصول العلوم الإنسانية في القرآن الكريم "كشاف موضوعي." دار الوفاء للطباعة والنشر ط: ١سنة ١٤١٦ه/ ١٩٩٥م.

٢٣- السيد وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، تعريب ظفر الإسلام خان، دار البحوث العلمية: الطبعة ٢ (١٣٩٣ هـ-١٩٧٣م)

٢٤- سيف الدين عبد الفتاح اسماعيل، مدخل القيم، الناشر: المعهد العالمي للفكر الإسلامي. طبعة أولى، بتاريخ ١٩٩٩م

٢٥- الشاطبي، إبراهيم بن موسى بالشاطبي، الموافقات، ت. أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٢٦- شريف الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط١، الرياض، ٢٠٠٤م.

٢٧- عز الدين توفيق، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية، دار السلام للطباعة والنشر، ط ١/ ١٩٩٨م، ١٤١٨ هـ.

٢٨- العك، عبد الرحمن، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس ط.٣/ ١٤١٤ ه/ ١٩٩٤م

٢٩- عمر عبيد حسنة، تقديم لكتاب: "المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، سلسة كتاب الأمة،لمؤلفه سالم أحمد محل، عدد، ٦٠.

٣٠- الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد الطوسي، إحياء علوم الدين، نشر مكتبة عبد الوكيل الدروبي، دمشق بدون تاريخ.

٣١- الفخر الرّازي، التّفسير الكبير مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١،١٤١١هـ. ٨/ ٢٠٠

٣٢- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ.

٣٣- القاسمي، محمد جمال الدين، دلائل التوحيد، دار الكتب بيروت (ط١ سنة ١٤٠٥ هـ-١٩٨٤).

٣٤- ماجد عرسان الكيلاني، مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها - مؤسسة الريان، لبنان ١٤١٩هـ١٩٩٨م.

٣٥- مجدي عاشور، السنن الالهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، دار السلام، ط. ٢٠١٣.

٣٦- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة ط.٢- ١٣٩٦ه- ١٩٧٦م.

٣٧- محمد عبده، مشكلات القرآن، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٣٨- مسلم بن الحجاج النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣٩- المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، (عالم الكتب-القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م).

٤٠- لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر، طبع مؤسسة الأهرام، الطبعة: الثامنة عشر، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.